كل شيء عن ١٧

الأنهار العظيمة فى العالم

تأليف

آن تيرى هوايت

ترجمة وتقديم

العميد ا . ح . محمد عبد الفتاح إبراهيم

إشراف ومراجعة

الدكتور محمد صابر سليم



دار المعارف

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة : آن تيرى هوايت

نشأت فى ولاية نيوإنجلند وتخرجت فى جامعة براون ، ثم حصلت على درجة الماجستير من جامعة ستانفرد .

بدأت التأليف بكتابة الكتب لبناتها لتقرب إلى أذهانهن ، وهن فى سن مبكرة ، المعانى التى تناولتها الكتب السماوية ومسرحيات شكسبير . ومنذ ذلك الوقت نالت إعجاب جمهور كبير من الفقراء من الأطفال والراشدين على السواء . ويعتبر كتابها « عوالم مفقودة » من خير ما كتب من الآثار ، كما أن من بين الكتب التى ألفتها ثلاثة كتب يعد كل منها ثورة فى عالم التأليف وهى : « أمريكا قبل التاريخ » و « جورج واشنطون كارفر » و « الإنسان الأول » .

المترجم وصاحب المقدمة : العميد محمد عبد الفتاح إبراهيم

حصل على ماجستير فى العلوم العسكرية من كلية أركان حرب ، وعلى دبلوم الدراسات العليا فى التاريخ والآثار السودانية من جامعة القاهرة . له مؤلفات كثيرة أغلبها فى الشئون العسكرية أهمها « محمد القائد » و « بين حربين » و « الحرب البرقية » و « كلاوزيفتز » و « الحرب الأهلية الأمريكية » ترجم «رواد الاستراتيجية الحديثة » الذى نشرته هذه المؤسسة فى أربعة أجزاء .

المراجع : الدكتور محمد صابر سليم

أستاذ بكلية التربية ، جامعة عين شمس ، تخرج فى كلية العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ . حصل على دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين

سنة ١٩٤٤ . سافر فى بعثة إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٤٧ . حصل على درجة الماجستير من جامعة ستانفرد بكاليفورنيا سنة ١٩٤٩ ،وعلى الدكتوراه فى التربية وتدريس العلوم من جامعة ستانفرد سنة ١٩٥١ . عمل مستشارا ثقافياً منتدباً لجمهورية مصر العربية فى بكين . ترجم عدداً من الكتب التى أخرجتها هذه المؤسسة ، من بينها « العلم بين يديك فى تجارب » و « كيف تدور عجلة الحياة » و « الشمس والآلة » و « الذرة فى خدمة السلام » و « كل شىء عن الراديو والتليفزيون » . كما قام بمراجعة كثير من الكتب العلمية للمؤسسة .

مصمم الغلاف : إيهاب شاكر

محتويات الكتاب

مقدمة

بقلم العميد (ا . ح) محمد عبد الفتاح إبراهيم

تجرى عشرات الآلاف من مجارى المياه متجهة نحو البحر لتصب فيه . . . وكلها على تباين الأرض التى تجرى فيها تتشابه فى الطابع العام . إنها كلها تسير متعرجة ملتوية تحفر الأرض، وتنحت الصخر ، ثم تتجمع معا مجموعات من الفروع والروافد لتكون أنهارا كبيرة قوية تقطع آلاف الأميال فى سيرها ، ثم تنتهى إلى هدف واحد هو أن تصب فى البحر الفسيح ، فتنقل إلى هذا البحر آلاف الأطنان من الغرين والصخور التى تحملها من منابعها ، دون كلل أو ملل تقطع هذه الرحلة الطويلة لتنتهى بهذا كله إلى البحر .

وفى البحر الفسيح يتبخر الماء ، وتتكون السحب ، وتسقط الأمطار ، وتتكون الثلوج . ثم تنحدر المياه فى غدران ضيقة على منحدرات الجبال والتلال لتتكون الغدران التى تمد الأنهار الكبرى بالمياه التى تحملها هذه بدورها إلى البحر . وتتم الدورة لكى تبدأ من جديد . . . .

قصة بدأت سطورها الأولى منذ فجر الخليقة ، ولا تزال فصولها تبدو أمام النظارة على مسرح العالم دون أن يسدل الستار على فصلها الأخير ، ذلك لأن المسرحية مستمرة . . دائمة بدوام الأرض . . وبدوام الحياة .

وفى كل مكان . . فى الفجاج العميقة الوعرة ، وفى الغابات الاستوائية الموحشة ، وفى القنن الجبلية المغطاة بالثلوج . . ثم فى أراضى الحشائش والمروج . . فى كل مكان من العالم نجد مجارى المياه هذه التى تولد ، وتنمو ، وتقوى ، وتشتد ، ثم يتقدم بها العمر وتصل إلى مرحلة الشيخوخة ، ولكنها فى كل هذه

المراحل تعدو ، أو تسير متباطئة ، فى رحلة لاتنتهى ولا تتغير ؛ لأنها دائماً تستهدف الوصول إلى البحر .

وعن هذه القصة تحدثنا المؤلفة آن تيرى هوايت . ولكنها تقصها علينا منتقلة من التعميم إلى التخصيص ؛ لأنها تقصها علينا فى الحديث عن خمسة من أنهار العالم الكبرى : النيل ، والأمازون ، ويانجتسى ، والفولجا ، والمسيسيبى نهر من أفريقية ، وثان من آسية ، وثالث من أوربا ، ثم نهران من العالم الجديد .

وفى حديثها تروى لنا المؤلفة كيف تطورت هذه الأنهار على مر العصور ، وكيف أثر كل منها فى الأرض والناس على شاطئيه .

إن قصة النهر ، أى نهر ، قصة مثيرة ، قصة الغدران الصغيرة التى تطورت وتجمعت لتكون النهر القوى ، قصة الإنسان واعتماده على هذه المياه العذبة يستخدمها فى كل صور حياته وعمله ، ثم قصة كفاح الإنسان للسيطرة على هذه الأنهار وتوجيهها للخير والنفع ، لا للإتلاف والتدمير .

والمؤلفة آن تيرى هوايت لها شهرة ترجع إلى أكثر من عشرين سنة ، ولها قراء ليس بين الأطفال فحسب ، بل بين البالغين أيضاً . وكتابها « العوالم المفقودة » الذى صدر سنة ١٩٤١ يعتبر من أجمل الكتب التى صدرت فى العصر الحديث عن الحفريات القديمة ، ولها أربعة كتب من كتب العلم هى :

- أمريكا قبل التاريخ .
- جورج واشنطون كارفر .
- رواد العلم .
- وليم شكسبير ومسرح جلوب .

ولها ثلاثة كتب فى سلسلة كتب : « كل شىء عن . . . » هى :

- كل شىء عن الصخور المتغيرة .
- كل شىء عن النجوم .

ثم الكتاب الذى نحن بصدده – كل شىء عن الأنهار العظيمة فى العالم .

أما الرسام الذى قدم رسوم الكتاب، «كورت وايز» فهو من أحب الرسامين إلى قلوب الأطفال ، وقد ضرب الرقم القياسى فى عدد الكتب التى رسمها .

وقد يكون كورت أصلح من يرسم كتاب «كل شىء عن الأنهار. . .»، فهو قد عاش على شاطئ كل من هذه الأنهار التى تقدم المؤلفة فى كتابها الحديث عنها . ولد فى ألمانيا ، ثم نزل أرض الصين حيث قضى أيام الحرب العالمية الأولى أسيراً فيها ، ثم أرسل إلى معسكر للأسرى فى أستراليا ، وهناك بدأ يرسم الأشخاص والأشياء التى حوله ، وقد امتدحت رسومه حتى إنه انصرف إلى رسم الكتب . .وبدأ هذا فى ألمانيا ، ثم فى البرازيل ، ثم منذ سنة ١٩٢٧ فى الولايات المتحدة التى نزلها للإقامة بها .

ويعيش كورت الآن فى فرنشتاون من أعمال نيوجيرسى فى منزل يرجع تاريخ بنائه إلى سنة ١٦٨٠ للميلاد ، ومرسمه فى حانوت حداد قديم على مقربة من منزله .

كتاب يستهوى كل قارئ من كل سن . . حرىّ بالمطالعة .

٢٥ من أبريل ١٩٦٢



١
نداء الأنهار

تصبّ في البحر آلاف لا حصر لها من مجارى المياه ، وفى سبل متعرجة وسط الوديان المسطحة الواسعة والممرات الجبلية الضيقة العميقة ، وسط الغابات الاستوائية والمناطق الجليدية المقفرة المجدبة ،وسط أرض الحدائق والمراعى والمروج ، تجتاز المدن والمزارع ، أنهار كثيرة فى العالم لا نهر واحد ، ومع هذا ليس بينها نهر واحد ليست له أهميته وجدواه للإنسان .

لقد أقام الإنسان على حافات مجارى المياه قبل أن ينتقل إلى « حياة الزارع » ، كانت الأنهار تعنى للإنسان ، المياه العذبة ليروى ظمأه ، وليطهو طعامه ، وليغتسل . وكانت تعنى بالنسبة إليه السمك الذى يصطاده ، والطرق

التى يتنقل من مكان إلى مكان بوساطتها ، وسارت القوارب التى صنعها الإنسان وسط الأنهار جيئة وذهاباً ، وكان هذا أيسر وأسهل وأكثر أمناً من التعثر بالسير خلال الغابات التى لاطرق فيها ، والتى تتوالى فيها الحيوانات المفترسة ، تتربص به ، وتكمن له .

ولكن شيئاً آخر غير الإنسان كان ينتقل أيضاً على صفحات مياه الأنهار ؛ لقد سارت الأفكار والآراء بطريق النهر مع الإنسان .

وكان الناس فى قرية ما يقولون لأنفسهم – وهم يحدقون مشدوهين بما يرونه لدى جيرانهم :

« انظروا ماذا لدى جيراننا من غذاء وكساء وأدوات » .

وقالوا لجيرانهم :

– «إننا نعطيكم هذا لنأخذ ذاك » .

وكانت التجارة . . .

ثم قالوا لأنفسهم :

« انظروا كيف يصنع هؤلاء الذين هم فى الجنوب منا على النهر ، كيف يصنعون هذه القدور ، وكيف يجففون الأسماك . ؟ انظروا إلى أقواسهم وسهامهم ومصايدهم ، انظروا كيف استطاعوا أن يروضوا الذئب ! » .

وتعلم الناس فنونا كثيرة جديدة .

وسار التقدم على طول الأنهار ، سار بسرعة حتى إن سكان الجبال كانوا – فى الغالبية – متخلفين عن سكان النهر . وانظر إلى أى خريطة تجد أغلب المدن العظيمة تقع كلها على الأنهار ؛ لقد كانت هذه الأنهار فى وقت ما هى طرق التجارة فى العالم . إن القاهرة والخرطوم ولندن وباريس ونيويورك وكلكتا وبيونس أيرس ، كلها مدن تقع على الطرق النهرية ، انظر إلى الدوائر السوداء التى تدل على المدن الهامة ، إنها هى أيضاً تتجمع وتكثر غالباً بالقرب من

مجارى المياه بسبب الخصب والتجارة والقوى المائية .

لقد ارتبط الإنسان ارتباطا وثيقا بالأنهار ، ولملايين السنين كانت الأنهار هى التى تشكل حياة الإنسان .

قالت الأنهار للإنسان : « عش هنا . . .لاهناك » .

قالت له : « احرث الأرض الخصبة فى جوارنا » .

كانت الأنهار هى التى حثت الإنسان على السفر ، قالت له : « سافر لتنظر ماذا وراءنا من بلاد ! » .

وكانت الأنهار هى التى علمت الإنسان أن فى الأسفار فوائد ونفعا .

لقد أومأت للإنسان : « اطحن قمحك ، ابن مصانعك . . .وليكن كل هذا فى جوارنا ، فإن مياهنا ستدير عجلات آلاتك » .

لقد أظهرت الأنهار للإنسان قوتها التى لا حد لها ، قالت له : « خذ هذه القوة ، حولها إلى طاقة ، اختزنها إن شئت ، إن قوتنا ستمنحك الضوء والطاقة » .

إن نداء الأنهار دائم متصل مستمر ، إنها تدق أذن الإنسان وهو ينصت لدقاتها ويطيع ما تأمره به . . .





٢
من السحاب

لوكنت قد سألت أياً من الشعوب القديمة : من أين جاء نهرهم ؟ . . لكانوا قد قالوا لك : « لقد أرسلته السماء . إن نهرنا كان دائماً حيث هوالآن ، وسيظل كذلك هنا ، لقد كان النهر منذ بدء الخليقة » .

وكنا نحن كذلك ، حتى عهد قريب ، نعتقد أن الأنهار كانت دائماً كما نراها اليوم ، ولكن تتوافر لنا اليوم المعرفة ، نعرف أن لاشيء على وجه الأرض يبقى إلى الأبد . إن الأنهار تجيء وتذهب ، وللأنهار شبابها ، واكتمالها ، وشيخوختها .

وحياة الأنهار أطول بكثير من حياة الإنسان ، فلم يعاصر إنسان قط نهرا يقطع مراحله كلها من مولده إلى شيخوخته، ولكننا نستطيع أن ننظر إلى الزمن بمنظار مقرب ، فنعرف قصة النهر من البداية ، وسنبدأ بأن ننظر إلى السماء ؛

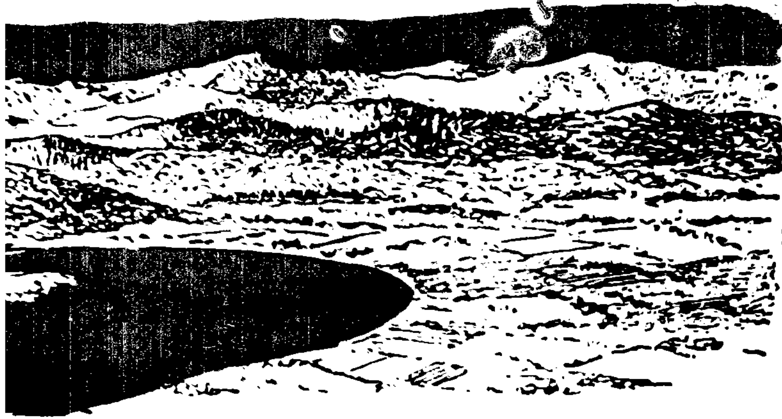
إنه يبدأ مع سقوط المطر على الأرض . .ونرى الأمطار وهى تتساقط ، ثم تسير فى مجار متعرجة فوق كل منحدر ، فإذا التقى منحدران تجمع المجريان فوقهما ، ويقل عدد مجارى المياه الصغيرة ، ولكنها تقوى وتشتد ، وتحفر هذه الجداول القوية الأرض ، يشق كل منها أخدودا ، وتكبر الأخاديد والغدران ، وهنا يجتذب أكبرها نظرنا .

فإذا ما توقف المطر جف غديرنا الكبير ، فإذا ما سقط المطر ثانية عاد الغدير من جديد فامتلأ بالماء وبدأ فى حفر الأرض ، ويزداد عمق الأخدود سنة بعد أخرى ، وأخيراً يصبح الأخدود كبيراً حتى لا نستطيع أن نسميه أخدودا ، فقد أصبح واديا .

وسنجد فى البداية أن المياه تجرى فى وادينا عندما يتساقط المطر ، ثم لبعض الوقت ، بعد توقف المطر ؛ ولكن مع ازدياد عمق الوادى — نجد المجرى المائى يستمر لوقت أطول ؛ ذلك لأن المياه تتسرب وترشح من جانبى الوادى ، وهذه المياه التى تتسرب من جانبى الوادى هى ما تسرب من المطر إلى باطن الأرض واحتفظت به كالإسفنجة ، ولكنها عندما تتشبع بالماء تعود فتطلقه . ويتكرر سقوط المطر سنة بعد أخرى ، وفى كل مرة تظل المياه فى للوادى لوقت



« وينهمر المطر وتكبر الجداول والغدران »



« وتنزلق الأرض قطعة إثر أخرى فى النهر المتعرج

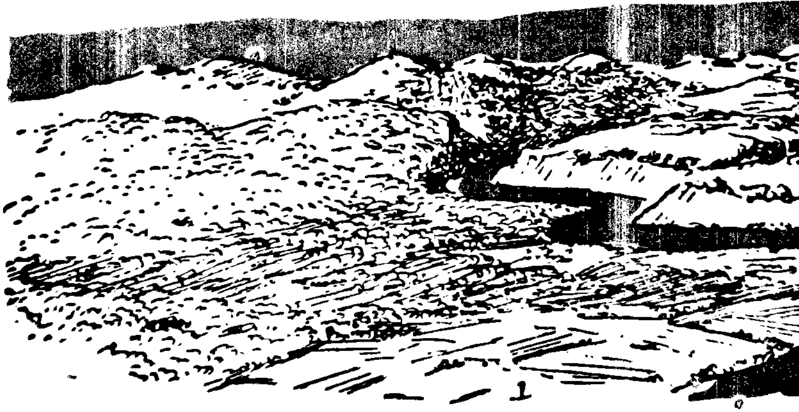
أطول ، وتحفر فى المجرى لعمق أكبر . وأخيرا نجد المياه باقية تجرى فى الوادى طوال الوقت .

وهنا نقول لأنفسنا : « إن شيئا آخر يغذى هذا الغدير » .

نعم . إن هذا الشىء هو المياه التى تتسرب وترشح من باطن الأرض ، إنها تجىء من مستوى أكثر انخفاضا من مستوى سطح الوادى ، مستوى توجد فيه المياه دائما ، توجد فى الحفر والشقوق وفى ثنايا الأرض وبين الصخور ، وهذا هو السبب فى أن غديرنا لم يعد يزورنا لبعض الوقت ثم ينصرف ، فمع استمرار جريان المياه يكون قد كون نفسه ليكون غديراً دائماً مستمرا .

وندرك أنه سيكون مجرى أساسيًّا ؛ ذلك لأنه فى مرحلة تشكله وتكونه نجد غدرانا أخرى تتكون فى الأخاديد المجاورة ، ونراها تتصل بمجرانا ، ومن اليمين واليسار تجىء الجداول والنهيرات لتتصل بالمجرى الرئيسى ، وكما يجىء زعماء الأقاليم بهداياهم إلى رئيسهم ، فإن الغدران الصغيرة تجىء بالمياه مسهمة بها فى تكوين المجرى الأساسى الرئيسى .

وتسمى هذه المجارى المائية الصغيرة ، الفروع أو الروافد ، وهى تشبه



وتبدو جدران الوادى وكأنها تتباعد عاماً بعد آخر »

عروقا كبيرة من أوراق الشجر التى تتصل معا فى العرق الأوسط لورقة النبات ، إنها تبدو كأغصان شجرة قوية كبيرة ، ويمثل الغدير الرئيسى دور الجذع فى هذه الشجرة، وتسمى ورقة الشجر الكبيرة بشرايينها ، والشجرة الضخمة بفروعها . ونطلق عليها « شبكة النهر وفروعه » ، ونقول للأرض التى يرويها هذا النهر وروافده : « حوض النهر » .

ولكن المجرى الرئيسى مازال شاباً فتياً ، وهو يسير منتعشا مليئا بالحيوية بسبب اندفاعه فوق منحدر حاد ، وهو فى اندفاعه يحمل معه طينا غرينياً وحصى ، بل حتى جلاميد الصخور ، وكل هذه تصقل مجرى النهر وتزيد من عمقه .

وحتى ذلك الوقت لايكون قاع الوادى أكثر سعة من مجرى النهر ، يكون الوادى أشبه برقم ٧ ويكون مجرى النهر هو زاويته الحادة ، ولكن تكون هناك عدة تغييرات فى طريقها للاستكمال ، وتأتى هذه التغييرات بطيئة بحيث لايلاحظها الشخص الذى يعيش بجوار النهر ، ولكن مع التاريخ الطويل للأرض يتسع الوادى فى وقت قصير .

ذلك لأن عدة قوى تعاون النهر فى تحطيمه للأرض التى يجرى فيها ؛ فالجو ينحتها ، والرياح تلفحها وتهلكها ، والأمطار تكتسحها أمامها ، والصقيع يشققها ويصدعها ، وذرة إثر ذرة ، وقطعة إثر أخرى ، تتفتت الأرض وتتساقط فى مجرى النهر فتدفعها مياهه إلى البحر ، ويبدو جدارا الوادى وكأنهما يتقلصان وينكمشان متباعدين عن النهر ، ثم يزداد تباعدهما بعضهما عن بعض تدريجيًّا مع الأيام .

على أننا لا نلبث أن نجد النهر لم يعد يملأ قاع الوادى كله ، فقد تسطح الوادى فى هذه الصورة : ويتعرج النهر فى مسيرة وسط الوادى متثنياً من جانب إلى الجانب الآخر ، ويبدو النهر كأفعى تتلوى وتتثنى ولكنها التواءات دقيقة غير حادة ، ويقطع الجانب الخارجى لكل التواء فى جدار الوادى ؛ ذلك لأن التيار يكون قويًّا فى هذا الجانب الخارجى :

وهذه الالتواءات يجب أن تسترعى انتباهنا ؛ ذلك لأن قصة النهر من هذه المرحلة هى أن هذه الالتواءات التى تشبه التواءات الأفعى تقوى وتشتد فى حين تزداد سعة الوادى يوماً بعد يوم ، فإذا ما صارت الالتواءات منحنيات وأقواساً عمقية فى شكل ~ ، وهى التى ندعوها التواءات وتعرجات ، وكان قاع الوادى أوسع من أى التواء ، قلنا عن النهر : إنه قد بلغ حد النضج والنمو فإذا ما ازداد انحناء هذه الالتواءات وكانت فى شكل « حدوة الفرس » ، وتكونت سلسلة منها عبر الوادى الواسع ، قلنا عن النهر : إنه يهرم ، وإنه قد بدأ مرحلة شيخوخته : والنهر الطاعن فى السن لا يقطع فى الأرض ، بل إنه يسير الهوينا فى استرخاء ، حاملا معه ثقلا كبيراً من الغرين إلى البحر ، وينتعش فقط فى وقت الفيضان ، وفى هذا الوقت قد يكتسح أمامه جانبيه ، أو ربما يقطع ويشق مجارى جديدة يسير فيها .

ولكن . . ألا يحدث أى شىء آخر ؟

لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يخبئ المستقبل لنهرنا ؛ فقد يمر بمزيد من المغامرات . والمنطقة الخارجة التى نسميها القشرة الأرضية لا تظل ثابتة بحال ما ؛ فهى دائمة الارتفاع فى مكان ما ، ودائمة الانخفاض فى مكان آخر : فإذا كانت الأرض التى يتلوى فيها نهرنا ترتفع وتعلو عاد النهر فتيًّا أو على حد قول العلماء : جدد النهر شبابه ، ذلك لأنه يبدأ يقطع فى مجراه من جديد ، ويكوّن مرة ثانية واديا آخر شكل رقم ٧ داخل الوادى القديم : ويتسطح هذا الوادى الجديد ثانية كما تسطح الوادى الأول ، وتتكرر القصة المرة بعد الأخرى وتعود فى كل مرة سيرتها الأولى من جديد .

ولكن ماذا يحدث إذا كانت الأرض تهبط وتنخفض بدلا من أن ترتفع ؟ لو حدث هذا لكان نهرنا يواجه المتاعب ؛ فإن مياه البحر ستغمر الوادى



«ويفيض البحر على الوادى ويطوى كل شىء فى طريقه»

ويغرق النهر ، لقد غرق الكثير من الأنهار ووديانها على ما نعرف من التاريخ القديم ، وخليج سان فرانسسكو كان أصلا وادى نهر ثم غرق ، وكذلك كان خليج شيزابيك Cqesapeake Bay وفرجات كارولينا Coroliua Sonuds كانا مجريين لنهرين غرقا تحت مياه البحر ، وأغلب الخلجان على ساحل نيو إنجلند شقتها فيما مضى مجارى أنهار ، ولكنها غرقت بعد ذلك ، وقد غرق نهر هدسون حتى مدينة تروى Troy فى ولاية نيويورك .

فإذا سألنا : وماذا يحدث إذا كانت الأرض لا ترتفع ولا تنخفض ؟

فى هذه الحال يواجه النهر مستقبلا تعساً ؛ فإن الأرض ستتحول ببطء إلى سهل ، ويكون أقل ارتفاع فى مستوى البحر مهلكاً مميتاً للوادى ، إذ لابد أن يغرق ، وفى النهاية يطوى المحيط كل شيء .



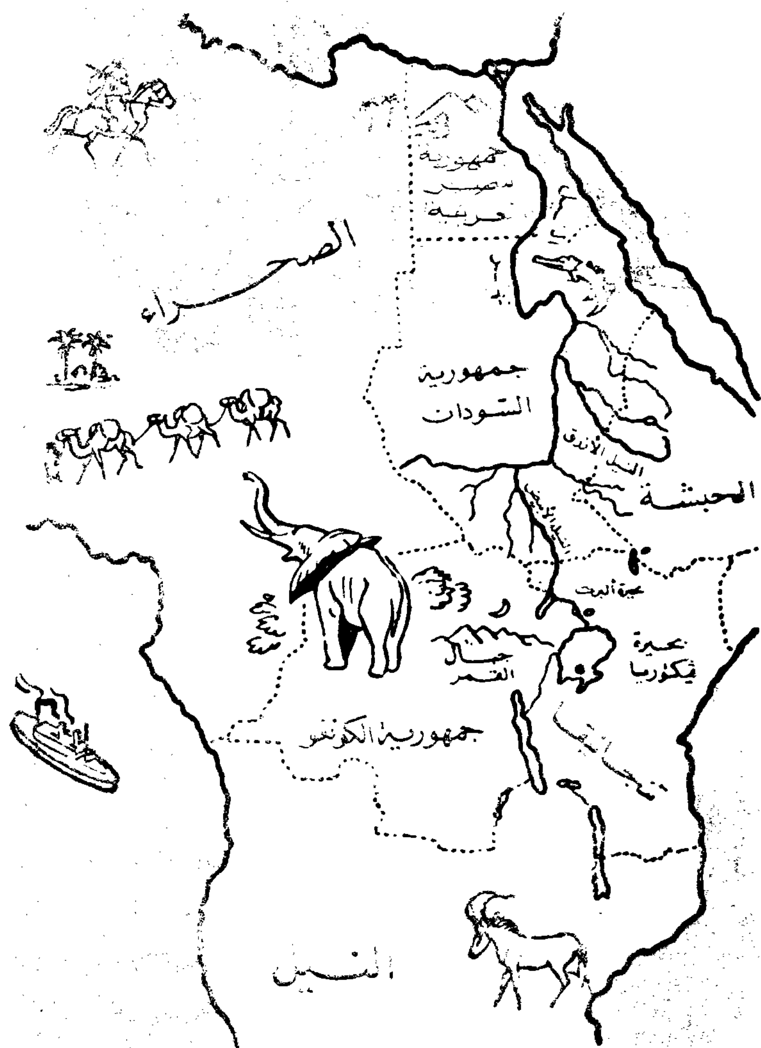
٣

كارثة فى شمال إفريقية

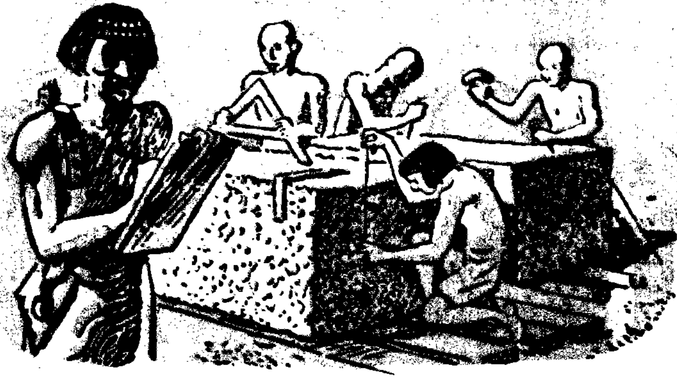
النيل أشهر أنهار العالم ، وهو نهر يجرى فى إفريقية لخدمة ونفع شعوب كثيرة ، ولكنه بخاصة نهر جمهورية مصر العربية ؛ ذلك لأن النهر وحده هو الذى يجعل الحياة رخية فى أرضها المعدومة المطر ، ولو أبعدنا النيل لكانت جمهورية مصر العربية جزءاً آخر من الصحراء ، ولاختفت زراعات القمح ، والشعير ، والذرة ، والقطن ، وأشجار النخيل ، ولاختفت الحدائق التى تستهوى النظر ، ولضاعت المدن بتجارتها وصناعاتها وفنونها ، ولتهيّلت المبانى فى بطء إلى تراب ، ولبقى فقط بعض البدو الرحل يقودون قطعانهم إلى بعض الواحات ذوات الينابيع عبر هذه الرمال المحرقة .

ولكن كيف أوجد النهر هذا كله ؟

إن النيل هو الذى منح جمهورية مصر العربية الأرض الصالحة للزراعة ، والنيل هو الذى يخصب الأرض عاماً بعد آخر ، ويحدث هذا بطريقة مبهمة



جمهورية مصر العربية
الصحراء
جمهورية السودان
النيل الأزرق
الحبشة
بحيرة ألبرت
بحيرة ڤيكتوريا
جبال القمر
جمهورية الكونغو
النيل



« كان المصريون القدامى متخصصين مهرة فى الرياضيات »

غامضة ، ففى نحو منتصف الصيف يبدأ الفيضان ، ويتملك النهر الأرض المنبسطة على كلا جانبيه ، ولمائة يوم تغطى المياه الأرض ، ولكن عندما تنحسر المياه فإنها تترك وراءها طبقة رقيقة جداً مستوية من طين أسود اللون غنية بالخصب يبذر فيها الفلاح المصرى الحب ، وهذا الشريط الضيق من الأرض على طول النهر الذى لا يتسع فى المتوسط لأكثر من عشرة أميال مع المروحة التى كونها النهر عند مصبه ، هى كل الأرض الصالحة للزراعة فى جمهورية مصر العربية الآن ، ولكن التربة خصبة بقدر كبير حتى إنها أمدت المصريين بالغذاء منذ عصور مغرقة فى القدم ، عصور أبعد من العصر التاريخى الذى سجله الإنسان : ومنذ ستة آلاف سنة — عندما كانت أوربا لا تزال أرض الصيادين المتوحشين — كانت حقول القمح تغطى أرض وادى النيل .

والنيل بخاصة نهر جمهورية مصر العربية ، ولكنه أيضاً بعامة نهر كل فرد ؛ ذلك لأن على شاطئيه بدأ الكثير من تاريخ الإنسان ؛ فهناك قامت



« كان شمال إفريقية فى آخر عصر الجليد منطقة حشائش غنية بالزراعة »

بعض المدن الأولى ، وعلى شاطئيه أيضاً تطورت الكتابة والرياضيات وعلم الفلك، وهنا قامت بعض الحكومات الأولى ، وهنا كان الطابع الذى نعيش تبعاً له :

ولنعد بالزمن إلى الوراء لنرى أولئك الذين صنعوا هذا كله عندما جاء هؤلاء الناس لأول مرة إلى النهر ، وذلك لأنهم كانوا مهاجرين نزلوا أرض النهر من مناطق أخرى ، ولننظر كيف ولماذا فعل هؤلاء هم والنهر مثل هذه الأشياء العظيمة ؟

كان هذا فى نهاية عصر الجليد ، كان شمال أوربا مغطى بالثلج بسمك مئات الأقدام ، وكان شمال إفريقية يوم ذاك صورة أخرى غير الصورة التى نراه عليها اليوم ؛ لم تكن هناك صحراء ، كان كل شيء أخضر ، وكانت الأرض كلها مغطاة بالحشائش ، وكانت الأمطار غزيرة . وبينما كان (الماموث) Mammoth ، و « الصناجة » من أسلاف الفيل والخرتيت (الكركدن) ،والرنة Reineer ترى فى جنوب إنجلترا وفرنسا : كان شمال إفريقية كجنة عدن ، تعيش فيها وتطعم قطعان كبيرة من الفيلة والظباء Antelpe كانت منطقة واسعة للصيد ، كانت جنة للصيادين :

وانتهى عصر الجليد ، وبدأ تغير مخيف فى شمال إفريقية ؛ فلقد تحولت



« وفى ذلك الوقت كانت قطعان من الفيلة والظباء تحصل على غذائها من الأرض »

الأمطار للشمال ، وبدأت الحشائش تجف . . فشهراً إثر شهر تغطى أشعة الشمس المحرقة الأرض ولا تتساقط الأمطار ، وتحركت القطعان الجائعة نحو الجنوب . وتحولت الجنة الخضراء إلى صحراء بسرعة :

وواجه الصيادون تحدياً مرعباً مخيفاً حقاً ، فإما أن يواجهوا هذا التحدى، وإما أن يموتوا : ومات البعض :

كانوا يواجهون كارثة : : نكبة ، دون أن يستطيعوا القيام بعمل ما ؛ فهم لا يستطيعون تغيير أسلوبهم فى الحياة . ولا يستطيعون الانصراف عن أرضهم ، ولكن أولئك الذين لم يموتوا كانوا من نسيج أقوى ، وقد وطدوا أنفسهم على البقاء وعلى مقاومة التحدى : وقد ذهب البعض شمالاً ، وذهب آخرون جنوباً ، ولكن البعض بقوا حيث هم وأقاموا ، ولكنهم انصرفوا عن الصيد وتحولوا إلى رعاة يتجولون فى أرض آبائهم .

ولكن البعض كانت لديهم استجابة للجفاف ، كانت استجابتهم أجرأ الاستجابات ، ذلك لأنهم قرروا اتخاذ أسلوب جديد فى الحياة : أسلوب ، جديد فى الأرض الجديدة ، وستظل أنظارنا على هؤلاء الشجعان ؛ ذلك لأنهم هم أول من أوجدوا المدن على شاطئ النيل .



٤

شعب ونهر

ولكن كيف نظر هؤلاء الناس الذين عاشوا فى شمال إفريقية للشرق نظرات مليئة بالأمل عندما دُفعوا دفعاً من وطنهم بسبب الجوع ؛ كانوا يعرفون أن فى الشرق أرضاً مخضلة ، لقد جاءهم صيادوهم المتجولون بأنبائها ، وبأنه يمكن اصطياد فرس البحر Hippopotemns هناك .

ولكن عندما رحلوا إلى الأرض الجديدة اهتزت معنويات الناس ؛ كانت هناك رقعة متسعة تعلوها نباتات نامية ، ولكنها ليست أرض المروج النافعة المفيدة ، وليست أرض الحشائش ؛ كانت مستنقعات مقفرة موحشة ،تعلوها سحابات متراصة من البعوض . فهل كان هذا هو النهر الذى حدثهم عنه صيادوهم ؟

وخاف الكثيرون من الرجال والنساء من المنظر ؛ لم يكن هناك نهر محدد المجرى ، كان النيل عبارة عن مستنقع حرشى لا شكل له ، مستنقع واسع يضيع فيه مجرى النهر ، غابة موحشة من الغاب والحشائش التى ترتفع لأكثر

من خمس عشرة قدماً ترقد التماسيح المخيفة وسطها وقد فتحت أفواهها :

ولكن لم يكن من سبيل لينكص هؤلاء المهاجرون على أعقابهم ، لم يكن هناك ما يرتدون إليه ، ففى الأرض التى عاشوا فيها كان الغذاء يقل عاماً بعد عام ، ومن ثم كان من الضرورى أن يبقوا حيث هم ، وحيث يمكن — على الأقل — أن يجدوا فرس البحر ، أن يبقوا ليزرعوا الأرض ، وليرووا النبات بالمياه التى يجيئون بها من المستنقع .

كان هؤلاء الناس فى أوطانهم رحلا يتجولون ولا يستقرون ، ولم يعرفوا الزراعة ، كانوا يجمعون الفاكهة والبذور البرية ، ولكنهم الآن ودون مهارة أو تأكد زرعوا الحبوب . وفى البداية زرعوا الحب هنا وهناك على حافات المستنقع ناقلين المياه إلى غاية ما يستطيعون لرى حقولهم ، ولسرورهم نما القمح وكان توفيقهم كبيراً ؛ فقد جنوا من كل حبة زرعوها مائتى حبة ، وسرعان ما ازداد طموحهم ، وخطرت لهم فكرة اكتساب الأرض من المستنقعات ، كانوا يريدون زراعة مناطق أوسع وأوسع وبدءوا يمهدون قطعاً من المستنقع الحرشى (الدغلى) وحفروا الحفر لتصريف المياه بعيداً .

ولمئات السنين ، بل ربما لآلاف السنين ، تحولت المستنقعات قدماً بعد قدم إلى أرض جافة ، وتراجع النهر . كان النهر يجمع نفسه من البحيرات الضحلة والمستنقعات . وبدأ النهر يجرى بسرعة أكبر ويحفر مجرى أضيق وبعمق أكبر ، وتعلم النيل أن يجرى كما تجرى الأنهار .

ولم يعد ثمة خوف من جوع ، كان سكان إفريقية — عندما كانوا يعيشون حياة الصيادين — يعيشون إما فى وليمة عيد لوفرة الصيد ، وإما فى جوع وفاقة . ولكن منذ تحولوا إلى حياة الزراع توافر الغذاء الذى يمكن أن يختزنوه ويدخروه للحاجة مستقبلا . وتزايد هذا المدخر عاماً بعد عام ، وفى وقت ما يزيد المدخر حتى لا تكون من حاجة ؛ لأن يعمل كل الناس فى زراعة الأرض ويمكن أن يوجه البعض لأعمال أخرى — وبخاصة بعد أن اخترع المصريون

المحراث واستخدموا الثيران، وصنع رجل الآنية من الفخار ، ونسج ثان القماش، ودبغ ثالث الجلد ، وصنع رابع طوب البناء ، ووجد الصناع أنه من الأوفق أن يقيموا متجاورين ، ومن ثم بدأت الجماعات المستقرة :

وكان النهر هو المشكلة الكبرى ؛ فنى كل مرة يعلو الفيضان تمتلىء القنوات بالغرين ، ويكون من الضرورى إعادة حفر القنوات ، ومن الضرورى استمرار تصريف مياه المستنقعات لتجفيف الأرض ، أى لإيجاد أراض جديدة ،وكان هذا يتطلب أن يعمل الكثيرون من الرجال معاً متعاونين ، ولكن كان من الضرورى أن يتم هذا العمل وفقاً لخطة مدروسة ، وأن يكون هناك قادة ينظمون عمل أولئك الذين يحفرون الأرض :

وهكذا ولدت « الحكومة » :

وكان واجب حفر القنوات سهلا هيناً عند مصب النهر ، حيث يتفرع النيل إلى مجار صغيرة كثيرة العدد ، وحيث يتخلى النهر عما يحمله من الغرين . وكانت قد تكونت هناك بين فرعى النهر جزيرة كبيرة مثلثة الشكل تشكل حرف



« عند مصب النيل يقع مثلث من الأرض بين فرعى النيل العظيم

« الدال » الحرف الرابع فى أحرف الهجاء الإغريقية ويسمى « دلتا » : على أن أحرف الهجاء لم تكن قد اخترعت بعد . . وهى لم توجد قبل آلاف غابرة من السنين ، ولكن فى أيام قادمة سنطلق على هذا التكوين لمصب النهر اسم « الدلتا » ثم تجرى هذه التسمية مجرى العرف وتطلق على مصاب كل أنهار العالم مهما كانت الصورة التى يجىء عليها هذا المصب.

وأطلق المصريون الذين عاشوا فى الدلتا على بلادهم اسم : « مصر السفلى » ؛ لأنها إلى الأسفل من مجرى النهر . وكان الناس الذين يعيشون لأبعد من هذا إلى الجنوب يقولون عن بلادهم : « مصر العليا » ، ولما كانت السيطرة على النهر فى أرض « الدلتا » عند مصب النهر أيسر منها للجنوب على النهر ، تطورت مصر السفلى وتقدمت واستطاعت أن تغزو « مصر العليا » ، فلما حكم مصر السفلى ومصر العليا ملك واحد خضع له ملايين الناس واستطاع أن يجمع منهم الضرائب . . وهى فريضة تؤخذ من ثمار الأرض من الحبوب ، وكلما زاد المحصول زادت جملة حصيلة الضرائب . ولهذا كان من الطبيعى أن يعنى الملك بزيادة غلات الأرض من الحبوب ، ونظم جمع الشبكات المحلية لقنوات الرى فى شبكة واحدة موحدة للبلاد كلها ، وبذلك يمكن حرث وزرع وإرواء مزيد من الأرض ، ومن ثم كانت مصلحة الرى هى العمود الفقرى للحكومة .

وكان النهر دائما محط أنظار كل فرد ، فهو يؤثر فى كل خطوة يخطوها الناس للتقدم ، وعرف المصريون متى يمكن أن يتوقعوا الفيضان ؛ كان عليهم أن يحدقوا فى السماء بحثاً عن علامات خاصة ، يراقبون النجوم ويجمعونها معاً فى صور سماوية كوكبية ، عرفوا كيف تبدو السماء قبل بدء الفيضان ، وهكذا أوجدوا « تقويماً » :

فلما عرفوا كيف يقيسون « الوقت » استطاعوا أن يسجلوا الحوادث ؛ سجلوها بصور ورسوم كل منها يمثل فكرة . . ولكن مع الوقت ، ومع مرور



« استخدمت حشائش مستنقعات النهر لصنع نوع من الورق »

الأيام ، كانت هذه الصور والرسوم تدل على أصوات ، وهكذا كان أن اخترعوا الكتابة .

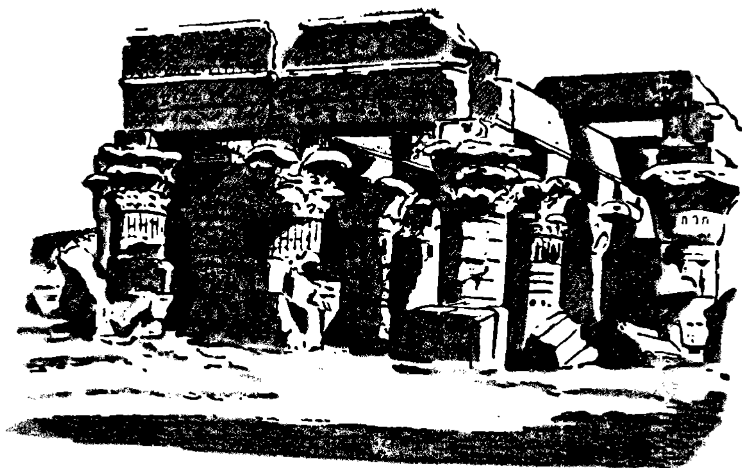
ولكن على أى شيء يكتبون ؟ . . الأحجار ، الفخار ، الخشب ، العظام ، كانت كل هذه ثقيلة الظل تمجها النفس ، وتحول المصريون إلى النهر ينشدون معونته ، ولم يخيب النهر أملهم فيه ، كانت تنمو فى مستنقعات النيل حشائش طويلة هى « البردى » تنمو فى أجمات ودغل كثيفة وتعلو لارتفاع ثمانى عشرة قدماً ، وكان المصريون يستعملون هذه الحشائش فى أغراض شتى ، وقطعوا عيدان البردى فى أشرطة دقيقة ثم جدلوها معاً متقاطعة ثم ضربوها وضغطوها حتى صارت صفحة رقيقة ، وبذلك صنعوا الورق .

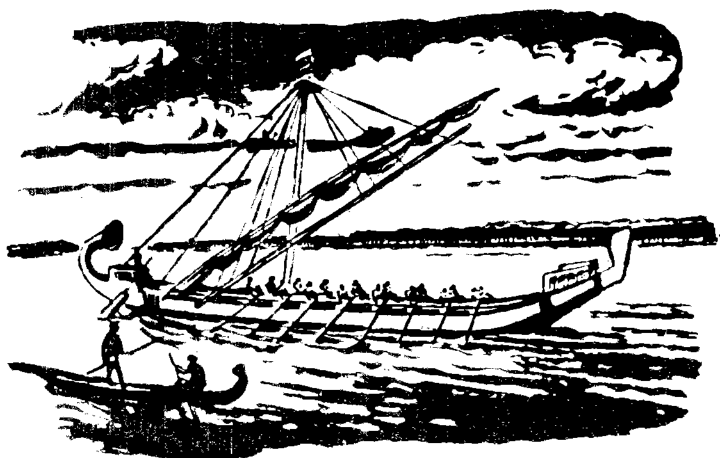
ولكن بماذا يكتبون ؟

وأعطاهم النهر الغاب والبوص ، عيداناً مدببة الأطراف فاستعملوها كأقلام ، وأخذوا من المجرى ماء زادوا من سمكه بصمغ نباتى مزجوه بسناج (هباب) القدور والأوانى الفخارية التى سودتها النيران ، وهكذا حصلوا على المداد (الحبر) .

واستحث النهر المصريين وأثارهم من مناح متعددة ؛ أرغمهم على تعلم القياس ؛ ذلك لأنه بعد أن ينتهى الفيضان تكتسح المياه الحواجز والسدود والجسور وتسد الحفر ، فكيف يستطيع مزارع أن يعرف أين تنتهى أرضه وأين تبدأ أرض جاره ؟ كانوا فى البداية يقيسون الأرض جزافاً لتسوية كل المنازعات ، ولكن عندما بدءوا البناء بات القياس فنّاً ، عرفوا كيف يقسمون المسافات بدقة أدهشت العالم ، حتى إنهم أخجلوا رجال العمارة فى عصرنا الحالى .

ولم يكن المصريون قد عرفوا البناء بالأحجار بعد ، فلم تكن لديهم آلات حديدية لقطع الأحجار ، واستخدموا فى البناء « قوالب » من الطين المجفف بالشمس ، ولكنهم مع الأيام حصلوا على النحاس ، وصنعوا منشاراً قاطعاً من النحاس بطول تسع أقدام ، وبهذه المناشير قطعوا كتلا كبيرة من الأحجار لم يسبق لأحد أن استخدمها فى البناء ، وقطعوها بإحكام ودقة حتى كان معماريوهم أشبه بالجوهريين ، مع فرق واحد هو أن المعماريين يقيسون أحجارهم على أساس الفدان لا البوصة ، وكانت قبورهم وهياكلهم عجيبة العصور ومفخرة الزمن ، وبقيت خرائب هذه الهياكل والمقابر بعد قرون من انتهاء المصريين القدامى على شاطئ النهر ينظر إليها العالم كله بإجلال ومهابة .





٥

النيل الأبيض والنيل الأزرق

منذ أقل من مائة عام كان منبع النيل أكبر لغز وأحجية محيرة فى علم الجغرافية . فلقد دهش الناس : « كيف أن نهراً يجرى فى صحراء محرقة ومع هذا لم يجف ؟ » .

فى أرض مصر لا يتصل بالنهر أى رافد يعاونه ويغذيه . ولا يمكن القول بأن أمطاراً غزيرة تتساقط فى أرض مصر . ومع هذا فإن النهر يصل إلى البحر مليئاً قوياً . ثم إنه لمرة واحدة فى العام يفيض بالماء . فماذا يغذى النهر ؟

ولألفى سنة بقى الناس يسألون أنفسهم السؤال نفسه . ولكن أحداً لم يستطع أن يسير على النهر بالقدر الذى يمكن معه أن يصل إلى إجابة عن هذا السؤال .
كان كل فرد يعرف بأن للنيل ذراعين : إحداهما النيل الأبيض — وهو المجرى الرئيسى الذى [illegible]

الأزرق الذى يجىء من الحبشة ، أو من إثيوبيا على ما يقال لها اليوم [1] ؛ وكان جيمس بروث الرحالة المستكشف قد سار على النيل الأزرق إلى منبعه فى الجبال ، وقال : إن النيل الأزرق هو الذى يمد النيل بالغرين الغنى الذى يعنى الحياة للمصريين ، وأوضح أن الطمى كثير الخصوبة لأنه رماد يكتسحه النهر من الصخور البركانية التى يشق طريقه وسطها .

ولكن ما هى قصة النيل الأبيض ؟ من أين يجىء ؟ هل يبدأ من مجارى مياه صغيرة فى الجبال العالية ؟

وفى تاريخ قديم عندما حكم الرومان مصر حاول الإمبراطور نيرون أن يبحث عن حقيقة هذا ، وأرسل بعثة تحت إمرة ضابطين أمرهما أن يسيرا على النيل إلى منبعه ، ولكن الضابطين لم يصلا إلى نهاية المرحلة حتى منابع النهر ، بل ذهبا إلى أبعد مما ذهب أى فرد آخر ، وعادا يقولان بأنهما وصلا إلى مستنقعات واسعة مليئة بالنباتات المتشابكة شقا طريقهما فيها ، ووصلا فيما وراء المستنقعات إلى كتلتين صخريتين كبيرتين يسقط بينهما النهر .

ولكن أحداً لم يعرف ماذا وراء هذه المساقط ؟ بل إن أحداً لم يعرف هل هذه المساقط حقـاً موجودة ؟

على أنه كانت هناك قصة أخرى كان على الرحالة المستكشفين أن يبحثوا ويحققوا صحتها ، ففى الوقت نفسه الذى شق فيه الضابطان الرومانيان طريقهما عبر المستنقعات قص تاجر إغريقى اسمه ديوجنيس أنباء رحلة تجارية قام بها ، قال : إنه سافر فى إفريقية ، فعبر الأرض من الساحل الشرقى ، وإنه سار لخمسة

---

(١) إثيوبيا Ethiopia أطلقها أصلا الجغرافيون الإغريق على أرض فى جنوب الشلال الأول ، أى أرض كوش القديمة ، وغطت أرض النوبة السفلى والعليا ، قامت فيها حضارة منقولة عن مصر القديمة امتدت حتى مروى ، وتوجد مجموعة كبيرة من المعابد والهياكل فى نباتا وجبل باركل ، شيد المصريون القدامى عدة حصون لحماية الطريق النهرى وطرق التجارة أولها للشمال فى أرض السودان الحالية « بوهين » على مرمى حجر من حلفا ، وتسمية الحبشة الحالية بإثيوبيا تسمية لا تستند إلى دعامة تاريخية (المترجم) .



« يتعثر نهر على الطنف الصخرى للسلسلة الرحيبه »

وعشرين يوماً حتى وصل إلى بحيرتين كبيرتين وإلى سلسلة من الجبال تعلوها الثلوج ، وهو يظن أن ثلوج هذه الجبال هى التى تغذى النيل بالمياه .

وسارت قصة التاجر الإغريقى مع القرون ، وكل من كتب عن النيل كرر هذه القصة ، قصة البحيرتين والجبال المغطاة فى قممها بالثلوج ، هذه الجبال التى عرفت باسم جبال القمر ، واجتذبت هذه القصة خيال الناس كما تستهويهم الأسطورة التى تقال عن الذهب .

ولكن : هل توجد حقاً هاتان البحيرتان ؟ وهل توجد جبال القمر ؟

وبلغ القرن التاسع عشر منتصفه ولم يصل أحد إلى إجابة ، وفى سنة ١٨٥٦ بدأ ضابط إنجليزى اسمه جون هانج سبيك رحلة إلى أفريقية ليجمع ألواناً من الحيوان ، ولكنه كان فى الوقت نفسه معنياً بمنابع النيل .

وقال سبيك لنفسه : « ربما تكون جبال القمر سلسلة ممتدة عبر أفريقية

من الشرق إلى الغرب ، وهناك سأجد أن النيل ينبع من الثلج كما ينبع نهر الجانج فى جبال الهملايا » .

ولكن سبيك وجد شيئاً يختلف تماماً عن هذا ، وفى ٢٨ من يناير سنة ١٨٦٢ وقف محدقاً فى كتلتين صخريتين كبيرتين يسقط بينهما النهر على طنف (إفريز) صخرى .

ورأى سبيك مجرى الماء الذى يتسع لمسافة ٣٠٠ ياردة بمياهه الزرقاء اللامعة يهبط لمسافة ست عشرة قدماً ونصف قدم ،ويتحول إلى زبد أبيض هائج متلاطم؛ وعرف أنه يطل على النيل ، كان يرقب النهر وهو ينفذ من شفة بحيرة فيكتوريا ليتركها بادئاً رحلته الطويلة إلى البحر المتوسط . ولم يحاول سبيك أن يسير على النيل شمالا إلى المستنقعات ، كان قد اجتاز الأرض من الساحل إلى داخل القارة فى الصورة نفسها التى قال ديوجنيس الإغريقى إنه قد فعلها ، وكان سبيك فى رحلة سابقة له قد اكتشف بحيرة فيكتوريا وأطلق عليها الاسم الذى عرفت به كان يشعر بأنه فى مكان ما من هذه البحيرة الواسعة التى تصل مساحتها إلى مساحة أيرلندة سيجد النيل يخرج منها ، وها هو ذا يقف عند ذلك المخرج على مسافة ٣٠ ميلا للشمال من خط الاستواء .

وبقى لساعات يحدق فى المياه التى ترغى وتزبد ، وقد اجتذب هذا المنظر تفكيره فنسى كل شىء سواه ، وراح يرقب آلاف الأسماك وهى تثب إلى مساقط النهر ، وفى جو هادئ قرب أعلى نقاط المساقط كان يرى أفراس البحر وهى تفتح أفواهها الواسعة الضخمة القرمزية اللون فى تثاؤب الكسالى ، ورأى التماسيح تصطلى بالشمس، والماشية لا تصل إلى حافة الماء لتروى ظمأها .

وهمس سبيك لنفسه : « منظر ساحر يخلب لب كل من رآه » .

ولكن كان هذا أقل جمالا وروعة من دهشة العالم كله حين يعرف الناس كيف يبدأ النيل الأعظم ، مساقط ترغى وتزبد تخرج من البحيرة العملاقة :



« آلاف الأسماك تثب فى مساقط النهر »

ودهش العالم المتحضر لهذا الكشف .

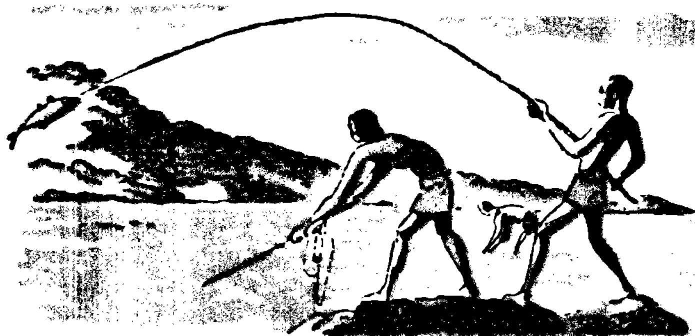
وجاءت أنباء جديدة أخرى ؛ فإن مستكفين آخرين كانوا يتعقبون خطى سبيك ، وكان لدى هؤلاء جديد يضيفونه لقصة سبيك ، قالوا: إنه توجد بحيرتان ، لا بحيرة واحدة ، وإن ثلوج جبال القمر تغذى النيل حقًّا بالمياه ، ولكن بعد أن يترك النيل بحيرة فيكتوريا فإنه يصب لداخل كتلة مائية كبيرة لا يلبث أن يخرج منها ثانية ، هذه الكتلة المائية هى بحيرة ألبرت ، وهذه لا تتغذى بمياه الأمطار فحسب ، بل بالثلوج التى تذوب من سلسلة جبال روينزورى(١) ، ولم تكن جبال روينزورى شيئاً آخر غير جبال القمر ، ومن ثم فإن قصة ديوجنيس حقيقية فى كل تفاصيلها .

ومع هذا الاحتياطى الكبير من المياه كان النيل فى مأمن من أن يجف ، وهو يستطيع أن يسير لآلاف الأميال تحت وقع أشعة الشمس المحرقة ، وأن يصل إلى البحر عاتياً قوياً .

ولكن كانت للقصة بقية لها غرابتها ، فليس النيل الأبيض بالبحيرتين

---

(١) روينزورى مجموعة صغيرة من الجبال فى وسط إفريقية على الحدود بين الكونغو وأوغندة ، يحتمل أن تكون هى جبال القمر التى ذكرها الكتاب القدامى ، وأعلى قنتها جبل ستانلى بارتفاع



« وعلى كل الصخور يقف الوطنيون صائدو الأسماك بغاباتهم وشصوصهم (سنانيرهم) »

اللتين تغذيانه بالمياه هو الذى يسبب الفيضان السنوى ، إن دور البحيرتين كان مجرد إبقاء النهر مليئاً وليس لهما دور فى فيضانه ، بل إن هذا الفيضان يسببه النيل الأزرق والعطبرة الرافد الآخر الأصغر والذى يجىء هو أيضاً من الحبشة ، وبدون هذين النهرين لم يكن النيل ليفيض بالمياه برغم هاتين الخزانتين الفسيحتين المليئتين بالمياه .

ولو شاهدت النيل الأزرق والعطبرة فى شهور الجفاف لما صدقت أن لهما دوراً ما فى الفيضان ، ففى شهور الجفاف العشرة من كل سنة يكون النيل الأزرق مجرى ماء ضحل لايصلح للملاحة ، ويجف العطبرة تماماً ، فإذا ما بدأ سقوط الأمطار فى الحبشة امتلأ النهران لشهرين كاملين بمياه متلاطمة الأمواج ، ويجىء هذا التحول فجأة حتى ليبدو فى كل مرة عند ما يحدث وكأن معجزة تقع .

ويقص « الكابتن » صمويل بيكر الذى اكتشف بحيرة ألبرت واكتشف أيضاً رافد العطبرة ، يقص علينا كيف فوجىء رجاله ذات مرة بوصول المياه .

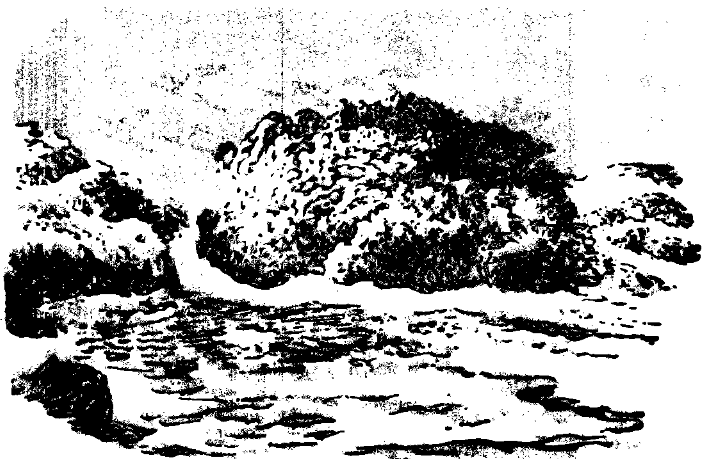
كان رجاله قد ساروا لأيام طويلة فى حوض النهر ، أرض جافة تحرقها

المياه فى الحفر العميقة والأخاديد التى كونها النهر عند اندفاعه بقوة فى مجراه .

وذات ليلة – ليلة الرابع والعشرين من يونيو – عندما كان كثيرون من الرجال يغطون فى نومهم على الرمال النظيفة فى حوض النهر ، سمع الرحالة وزوجه صوتاً كصوت قصف الرعد عندما يجيء من مسافة بعيدة ، وزادت القعقعة حتى أيقظت الرجال ، وتسارع البعض إلى حيث ينام الناس صائحين : « النهر . . . النهر . . » ، وفى لحظة استيقظ الرجال مذعورين ، وفى غمرة الاضطراب الذى حدث أوضح المترجم للرحالة أن هذا الصوت ليس قصف الرعد ، بل هو صوت النهر المندفع . ولم يكد آخر الرجال يصل متعثراً إلى أعلى جدار النهر حتى كانت المياه قد ملأت النهر وغطت كل شيء فى الظلمة الحالكة .

وعلى أضواء الصباح الأولى أطل الرحالة بيكر على نهر نبيل هو أعجوبة الصحراء ؛ كانت الأرض بالأمس صفحة من الرمال المحرقة يمتد على حافتيها صف من الشجيرات الجافة ، وإفريز من الأشجار يحدد حافة النهر ، وفى ليلة واحدة حدث التغيير الغامض وتحول النهر الجاف إلى مجرى مائى يصل عرضه إلى خمسمائة ياردة ، ويختلف عمقه بين خمس عشرة وبين عشرين قدماً .

وفى ذلك الوقت يكون المهندسون فى مصر قائمين بقياس ارتفاع نهر النيل ويبعثون بتقاريرهم عن هذا الارتفاع على طول النهر ، ويرقب الفلاحون تغير لون مياه النهر بسبب أتربة الصخور البركانية التى تحملها المياه ، ويبدأ الفيضان ، فالأمطار تسقط ، والثلوج تذوب فى أرض الحبشة .



٦

الحادث الهام

وتستطيع لو أردت أن تقول بأن النيل يبدأ عند مساقط ريبون ، ولكن الجغرافيين يسيرون إلى أبعد من هذا للجنوب ؛ فهم يقولون بأن نهر كاجيرا الذى يصب فى بحيرة فيكتوريا من الغرب جزء من النيل، فإذا اعترضت بفكرة أن كاجيرا يصب فى البحيرة على مسافة مائتى ميل من المساقط ، أجابوك بقولهم :

« لايغير هذا من الأمر شيئاً ، فنحن على هذا القياس نفسه ننظر إلى الأنهار الأخرى التى تجرى وسط بحيرات ، وفى هذه الحال تكون المسافة أطول ولا شىء غير هذا » .

وسواء أخذت بهذه النظرية أو بتلك ، فإن النيل ما زال أكثر أنهار العالم إثارة للدهشة ، ولدى النهر الكثير مما يقدمه حتى إنه يستحيل علينا أن نعرض هذا كله ، ولكن الجزء الهام الطريف يبدو متآلفاً منعزلا عن غيره .

وارقب النهر يثب وثبته الكبرى فى مساقط مورشيسون قبل وصوله بحيرة ألبرت ؛ إذ يجىء النيل فى ثورة عاتية عبر ممرصخرى ثم يسقط فجأة فى مجرى



« تتزاحم الأبقار الوحشية والظباء والزراف على حافة النهر »

ضيق لا تزيد سعته على تسع عشرة قدما (أقل من ستة أمتار بقليل) ،ويهبط النهر فى وثبته هذه عبر ثلاثة سدود مسافة أربعمائة قدم (١٢٢ متراً) .

وفى المساقط العظيمة ما يجعل قلوبنا تدق بسرعة ، ولكننا نستروح ونستعيد روعنا عند مساقط مورشيسون .

وإلى ما وراء المساقط نجد جديداً له روعته ، نلقى آلاف التماسيح ترقد تحت أشعة الشمس على شاطىء النهر ، ونرى أفراس البحر تلهو فى الماء ، كما تجىء إلى النهر النمور والفهود والفيلة بالعشرات لتروى ظمأها ، وتجىء الظباء فى قطعان كبيرة وصغيرة ، كما تجىء القردة والخنازير البرية ، كل هذه تجىء إلى النيل لتروى ظمأها ، فإن المنطقة حق لها لا ينازعها فيه أحد .

وبحيرة ألبرت بحيرة ملحة ، ولكن النهر يقطع فيها مدى قصيراً ، فيخرج النهر من البحيرة عذباً كما دخلها فلا يحمل معه شيئاً من ملحها ، ولا تزيد



« حتى الفيلة وأفراس البحر تلهو فى الماء »

رحلة النيل فى بحيرة ألبرت أكثر من خمسة أميال (ثمانية كيلومترات) يتركها بعدها ليتابع رحلته ، ويسير النهر لمسافة فى يسر ، ولكن سرعان ما تطبق عليه الجبال ، ومرة ثانية يرغى النهر ويزبد وتفور مياهه وينحدر فى ثورة عاتية فوق المساقط ، ثم يجىء تغيير آخر ويدخل النهر السهل ويسير مسافة أخرى ثم يبدأ أغرب جزء من النهر .

لقد وصلنا منطقة السدود ، منطقة المستنقعات المخيفة التى تخبط فيها الجنود الرومان ، ونتلفت من حولنا لا نصدق أعيننا : لقد ذاب النهر ، اختفى ، فإلى مدى البصر فى كل اتجاه لانجد أمامنا غير مستنقع تغطيه أعشاب كثيفة سميكة ، لقد فقد النيل مجراه وتحول إلى عدد لاحصر له من القنوات ، والنهر الذى كان يسير قبل هذا بين جداريز من الصخر يرتفعان إلى ١٨٠ قدماً (ما يقرب من ستين متراً) لم يعد له شاطئان ، لقد انداح مجرى النهر إلى ١٥ ميلا (نحو خمسة وعشرين كيلو متراً) ، وهنا وهناك تجول جزر من الأعشاب والمزروعات فوق سطح الماء تحركها الأهوية والرياح ، وتتسع البحيرات الضحلة

وتضيق . صحيح أن النهر يصلح للملاحة ، ولكن الملاح الماهر ذا العين البصيرة الدربة هو الذى يعرف أين يجده ، ولعله لايوجد من يحسن هذا . .

وهنا نجد خمسة وعشرين ألف ميل مربع ، أكثر من ستين ألف كيلومتر مربع ، تغطيها المياه جل أيام العام ، ويبدو وكأنه أبعد من قدرة أى إنسان أن يغير من طبيعة الأشياء ، لقد بذلت محاولات ، وجاء المهندسون فى بواخر ودقوا الأوتاد فى هذه الجزر الطافية فوق سطح الماء ، وربطوا حبالهم فى هذه الأوتاد ، ثم أداروا محركات سفنهم وسحبوا هذه الكتل من الأعشاب ، لقد طهر الإنجليز مرة مسافة خمسة أميال (ثمانية كيلو مترات) ، لقد استخدموا خمس سفن وثمانمائة رجل لثلاثة أشهر ، ومع هذا لم يطهروا غير خمسة أميال ، ونستطيع أن نفكر فى هذا بإمعان ، لقد قهر المصريون القدامى مستنقعاً من الأشجار المشتبكة مثل هذا ؛ ذلك لأن العلماء يقولون لنا : إن منطقة السدود فى أعالى النيل هى صورة تماثل ما كان عليه النيل السفلى عندما نزله صيادو شمال إفريقية منذ زمن بعيد ، وهم عن ثقة لم يطهروا خمسة أميال فى ثلاثة أشهر ، ولم تكن لديهم بواخر ولا حتى فؤوس من المعدن ، ولكن بأيديهم ، وبآلات بدائية ، أزاحوا الأعشاب التى تطفو فوق سطح الماء بعيداً عن مجرى النهر .

والآن ، فلنتقدم لنرقب ماذا وراء السد . .

أمامنا جنة من الطيور ، إنها الفردوس الثانى على الطريق ؛ فقد سبقتها واحدة فى جزيرة أجمية فى أعلى مساقط ريبون ، وستجىء ثالثة فى أرض دلتا النهر ، ولكن إلى هذه الأرض الوسطى على مجرى النهر يجىء الكثير من طيور أوربا مهاجرة لتقضى الشتاء ، ملايين من الطيور تفد إلى هناك ، تطير محلقة فى الفضاء تشدو وتتصايح ولكنها لاتتناسل ولا تبنى أعشاشاً ، برغم أنها ترى الطيور الإفريقية تتناسل وتقيم المآوى لكل زوجين منها ، لقد جاءت الطيور للغذاء والراحة ، وهى تعيش لنفسها ، وهذا هو أيضاً شأن الطيور الإفريقية ، تعيش



« تخطر الآلاف من طيور الكركى الغرانيق على شاطىء النيل العلوى »

لنفسها فى هدوء ، فهى لا تطير ولا تلعب ولا تقاتل الطيور الزائرة المهاجرة ، ولكنها تعيش فى سلام .

ويكون النيل قد قارب الوصول إلى المنطقة الصحراوية الآن ، وفى وسط هذه الصحراء يشق النهر أنشوطة واسعة فى شكل حرف S ، ذلك لأن النهر يلقى فى طريقه أحجاراً من الجرانيت تسد طريقه ، وعند الشلال الأول ، والذى هو الخامس فى الواقع منذ بدأنا رحلتنا على النهر من منبعه — عند الشلال الأول يستقيم مجرى النهر ، ولكن هنا يجىء شىء آخر يوقف مسير النهر ، ذلك هو خزان أسوان العظيم .

ولكن لماذا يقيم الناس هذا الجدار عبر النهر عندما تكون الحاجة ماسة إلى الماء فى مصر ؟

لنثق أنهم صنعوا هذا لتحسين الزراعة ؛ فالخزان يمكن من تنسيق انسياب الماء طوال العام ، فالجدار الحجرى يحتجز المياه خلفه لمسافة مائتى ميل ، يكون بحيرة يمكن أن تسحب المياه منها تباعاً للرى ، وكلما احتاج الفلاحون إلى مزيد

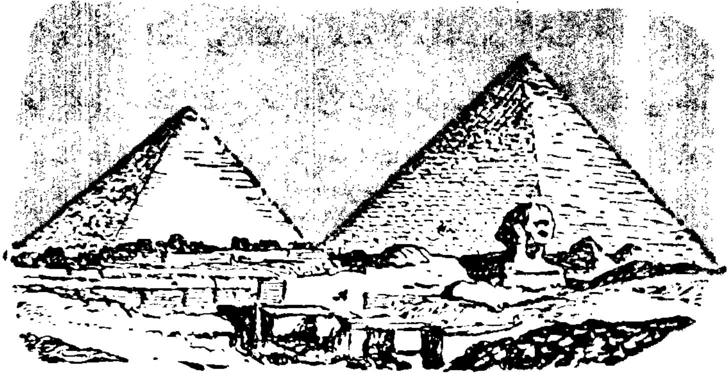
من المياه فتحت بوابات الخزان لأعلى وخرجت منها المياه ، وبهذا الانصباب المنظم المنسق لايمكن رى المزيد من الأرض فحسب ، بل يمكن إنبات ثلاثة أو أربعة محصولات فى نفس رقعة الأرض . وفى الشتاء يحصد الفلاحون محصول الحبوب ، وفى الصيف يجمعون القطن والأرز .

وفى كل مكان على طول شاطئ النهر نرى الناس يسحبون المياه التى تمنح أرضهم الحياة ، ونستطيع أن نسمع صوت إخراج المياه من النهر ؛ ذلك لأن السواقى (النواعير) التى يستخدمها الفلاحون لرفع مياه النيل إلى الشاطئ المرتفع لعشر أقدام أو لاثنتى عشرة قدما تحدث صريراً وعويلاً أشبه بالنحيب ، وكأنها تنشج بالبكاء ، فى كل عجلة رأسية من عجلات الساقية مجموعة من عشرين أو أكثر من الآنية الفخارية (القواديس) ترتبط بها ، فإذا دارت العجلة انغمرت هذه الآنية فى النيل وامتلأت بالماء ، فإذا ما ارتفعت إلى أعلى مكان تصل إليه العجلة انسكب الماء فى قناة صغيرة تؤدى إلى حفرة ومنها تنساب إلى الحقل .

وعلى الشاطئ نجد رجلا يقود زوجا من الثيران ، يدوران فى مسيرهما حتى تدور العجلة الرأسية بهذه الأوانى الفخارية هابطة إلى النهر وصاعدة مليئة بالمياه إلى الحقل ، ولعشر ساعات فى اليوم ، ولثمانية شهور من العام ، يستمر هذا العمل المضنى المجهد ، وفى مصر الآلاف من هذه العجلات أو السواقى .

وعند أسوان نجد أنفسنا فى أرض المصريين القدامى ، وهنا نجد على جانبى النيل عدداً لاحصر له من آثارهم الجبارة .

وعلى مسافة غير بعيدة من أسوان تقع طيبة — عاصمة مصر القديمة فى عصر ما — وكان النيل المقدس يجرى وسط المدينة الملكية ، فعلى أحد جانبى النهر عاش الملوك فى قصورهم الفاخرة الرواء فى زحمة الحياة النشيطة ، وعلى الجانب الآخر للنهر كانت هياكل الآلهة ، لقد تحولت القصور إلى تراب ، ولكن الهياكل الحجرية بقيت « ويحج الآلاف من الناس مجتازين المحيطات



« يرتفع الهرم الأكبر إلى ارتفاع ناطحة سحاب من أربعين طابقاً »

والقارات إلى هذه الهياكل لمشاهدتها .

ولكن عدداً أكبر من الرحالة والمسافرين يجيئون إلى الأهرام ليقدموا لها أدلة احترامهم وتبجيلهم إياها ، وتوجد هذه القبور الثلاثة الضخمة مع أبى الهول على النهر على مسافة كبيرة من أسوان .

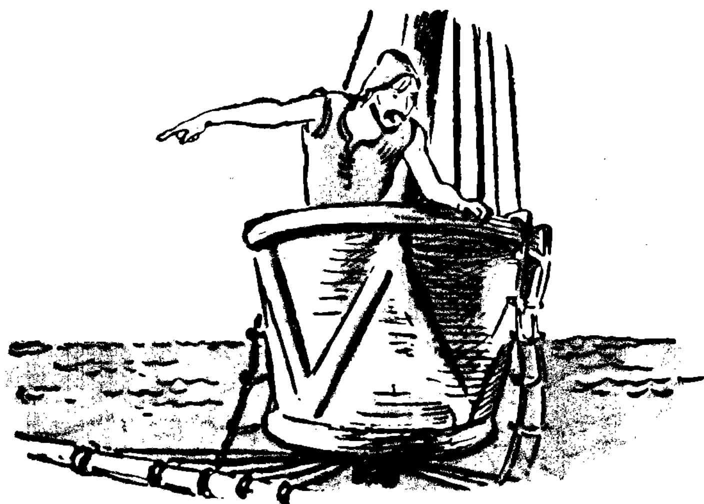
ولقد أطلق الإغريق على أهرام الجيزة الثلاثة : « أول عجائب الدنيا السبعة » ، ولا يزال الأهرام كذلك أول العجائب حقاً ، فليس على وجه البسيطة بناء يماثل أهرام الجيزة ، كتلة من الصخر قطعت باستواء حتى إن الملاط الذى احتاج إليه البناءون لتماسك الأحجار معاً كان رقيقاً كصفحة من الورق .

ولا يماثلها بناء كذلك فى الضخامة ، فمحيط قاعدة الهرم الأكبر يزيد على نصف الميل (ثمانمائة متر) ، ويغطى مساحة ثلاثة عشر هكتاراً ونصف هكتار ، واقتطعت ستة ملايين طن من الأحجار لبنائه ، ولو قطعت هذه الأحجار فى كتل صغيرة كل منها قدم مربعة ، ورصت جنباً إلى جنب فى خط مستقيم لغطت ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء .

وكل من شاهد الأهرام سأل نفسه :

« كيف بنى المصريون القدامى هذه الأهرام دون آلات ؟ ! » .

ونحن الذين عرفنا كفاح صيادى شمال إفريقية مع النيل لسنا فى حاجة لأن نسأل أنفسنا هذا السؤال ؛ فإن كل ما احتاج إليه المصريون القدامى لبناء الأهرام هو الصبر والمهارة والتنظيم ، ونعرف من أين جاء المصريون القدامى بهذا كله ، فهم قد ارتضوا تحدى النهر ، ومن ثم جعلهم هذا أقوى بنّائين شهدهم العالم .



٧

فسحة فى الأرض وقلة من الناس

يجرى الأمازون عبر الأرض فى شمال أمريكا الجنوبية ، والأمازون نهر قوى عات ؛ إذ يندفع بقوة لمائة ميل قبل أن تمتزج مياهه بمياه المحيط الأطلنطى ، ويستطيع البحارة وهم ما زالوا فى البحر الفسيح ، أن يتعرفوا مجرى النهر بلون مياهه المصفرة ، فيصيحون مستبشرين : « الأمازون » ذلك لأنهم يدركون اقترابهم من القارة .

كان الإسبان أول من استكشف النهر المثقل مجراه بالغابات فى أثناء بحثهم عن الذهب ؛ فأتوا النهر مصادفة ، كانت الشائعات تقول بأنه فى مكان ماشرق الأنديز [1] توجد أرض وافرة الثراء يحكمها ملك يقال له الدورادو » El Dorado ، الملك المموه بالذهب تشع القطع الذهبية فى جسده كما تشع النجوم فى كبد السماء ، وكان الإسبان يبحثون عن هذه الأرض المليئة بالعجائب

---

(١) الأنديز سلسلة جبلية تجرى على طول غرب أمريكا الجنوبية ، أعلى قنتها اكونكاجوا بارتفاع ٢٣٠٨٠ قدماً (٦٩٣٠ متراً) – معجم ويبستر ص ٤٦٥ (المترجم) .


ڤنزويلا
عيانا
إكوادور
نهر الأمازون
بيرو
البرازيل
بوليڤيا
الأمازون

حيث تبنى جدران القصور بكتل من الفضة وتسقف بقضبان الذهب ، ولا حاجة بنا إلى أن نقول بأنهم لم يجدوا هذه الأرض ، ولكن خمسين منهم بقيادة رجل اسمه فرنشسكو أوريللانا قاموا بمغامرة لا تنسى ، فقد ساروا مع النهر لمسافة ٣٩٠٠ ميل (٦٢٧٥ كليومتراً) فى كفاح وصراع ضد الجوع واليأس يحدوهم الأمل حتى بلغوا خاتمة المطاف إلى البحر .

وكان من الممكن أن يطلق على النهر اسم « أوريللانا » ، ولقد حدث هذا حقاً ، ولكن بعد قليل بدأ الناس يطلقون على النهر اسم الأمازون ؛ ذلك لأن قصة المغامرة تليت المرة بعد الأخرى ، وكان جزء من القصة يروى كيف أن الإسبان خاضوا غمار معركة عنيفة ضد الأهلين ، ويظنون أنهم رأو نسوة من المواطنات يقاتلن فى الصفوف الأمامية ، وكان من الغريب أن يواجه الإسبان نساء يحملن الأقواس ويطلقن السهام ، ودهش الناس لقصة النساء المقاتلات ، ولما كانت كلمة « أمازون » أطلقها الرجال على « النساء المقاتلات» فقد أطلق الاسم على النهر .

ومع أن الأمازون ليس أطول أنهار العالم إلا أنه ولا شك أقواها . فهو يحمل إلى البحر خمس المياه التى تحملها كل أنهار العالم إلى البحار والمحيطات .

فمن أين يجىء النهر بهذا كله ؟

والواقع أن النهر لا يجىء بهذه المياه من منبعه والذى هو بحيرة صغيرة فى جبال الأنديز تسقى من الثلج فى قنن الجبال على مسافة لا تزيد على مائة ميل من المحيط الهادى (الباسفيكى) ، بل تجىء مياه الأمازون من الغدران والجداول التى تجرى فى حوضه وتصب فيه وهى ليست بالعدد القليل ؛ إذ تصل إلى قرابة ألف ومائة جدول تجىء بالمياه من فنزويلا وكولومبيا وبيرو وبوليفيا فضلا عن البرازيل، وسبعة من فروع النهر هذه يزيد طول كل منها على ألف ميل .



« كان الإسبان المتعطشون إلى الذهب أول من اكتشف الأمازون »

بل إن طول فرعه ماديرا Madeira ألفا ميل . وقبل أن يلتقى بنهر الأمازون يكون قد صب فيه تسعون فرعا صغيراً خاصة به وحده .

وكل ما فى الأمازون يتحدث عن قوته ، وسعة النهر كبيرة حتى إنه فى أغلب مجراه ينقسم إلى قسمين تفصل بينهما آلاف الجزر ، وفى مجراه السفلى تصل سعة المجرى إلى أربعين ميلا ، ومصب النهر كبير السعة حتى إن به ثلاث جزر تقارب إحداها مساحة سويسرة (ما يقرب من ١٥،٩٤٤ ميلا مربعاً) .

والنهر بعيد الغور تستطيع السفن عابرات المحيط أن تسير فى مجراه حتى بلدة إكويتوس Iquitos فى جمهورية بيرو ، أى لمسافة ٢٣٠٠ ميل (ما يقرب من ٣٧٠٠ كيلو متر) ، ويقول الجغرافيون : إن عمق النهر يوضح سبب قوة تياره ؛ فالأمازون لكثرة ما به من مياه يستطيع متابعة السير لمئات الأميال فى مستوى أفقى .



« فقد سمعوا بأن وراء الأنديز أرضاً وافرة الثراء »

ويخطر لك أن مثل هذا النهر القوى لا بد أن يحمل الكثير من الغرين ، ومن ثم فإنه يستطيع أن يكون « دلتا » كبيرة رحبة ، وهذا صحيح ، فالأمازون يحمل إلى المحيط ملايين الأطنان من الغرين ، ولكن لا دلتا للنهر ، فكما أن النهر قوى ، فالمحيط بدوره قوى عات ، والنهر يحمل الغرين إلى المحيط فلا يترسب ، بل تحمله تيارات المحيط لتلقى به هى الأخرى بعيداً عن الساحل .

ثم إن البحر الفسيح يغزو النهر أحياناً ، وارتفاع المد أو انخفاضه ملموس واضح لمسافة خمسمائة ميل من مصب النهر ، وفى أوقات ما يندفع المد العالى نحو الساحل ، وتقوم معركة بين البحر والنهر ، وتتراكم المياه فى موجة عاتية تعرف باسم « الموجة المدية bore » ، وتندفع مياه البحر بارتفاع مترين إلى أربعة أمتار تقريباً ، تندفع بسرعة كبيرة مكتسحة أمامها مياه الأمازون لمئات الأميال ، ولكن من حسن الحظ أن هذه الموجات المدمرة تعلن عن نفسها بما تثيره من ضجيج يسمع من مسافة أميال ، ومن ثم يستطيع الناس الذين يعيشون على النهر النجاة بأنفسهم .

ولكن الواقع أن قليلا من الناس هم الذين يعيشون على النهر ، بل إن الناس فى حوض الأمازون قلة ، وفى هذه الفسحة من الأرض التى يرويها النهر يعيش أناس تعدادهم أقل من تعداد سكان شيكاغو ، بل لا يزيدون كثيراً عن سكان القاهرة ، فكل الذين يعيشون فى حوض الأمازون ثلاثة ملايين جلهم فى البرازيل .

لكن ماسبب هذا ؟

قد تظن أن نهر الأمازون وفروعه طرق مواصلات مليئة بالحركة ، وستفكر أن السفن النهرية الكبيرة تجوب النهر جيئة وذهابا حاملة البضائع والمتاجر لداخل البلاد وتعود محملة بحاصلات المناطق التى تمر بها ، قد تظن هذا ، ولكن الواقع أن حركة الملاحة قليلة فى النهر وفروعه بسبب عدم صلاحيتها للملاحة فى مناطق كثيرة ، وعلى النهر وفروعه مساقط قد يمتد بعضها لمسافة مائتى ميل ولا يستطيع الملاحة عبرها حتى فى السفن النهرية غير الملاحين المهرة .

على أن هناك أسباباً أخرى أهم ؛ فالأمازون على مقربة من خط الاستواء ، ومعنى هذا أن الأراضى المنخفضة شديدة القيظ حتى فى موسم الأمطار ، ثم إنها شديدة الرطوبة ، فمتوسط سقوط المطر مائتا بوصة فى العام ، أى خمسة أضعاف متوسط الرطوبة فى نيويورك ، وعشرة أضعاف متوسطها فى سان فرانسسكو ، وفى الجو الحار المشبع بالرطوبة يتوالد البعوض فى البحيرات الضحلة وتكون المنطقة كلها مباءة ومرتعا للأمراض والأوبئة — وبخاصة الملاريا والحمى الصفراء وما إليهما مما ينقله البعوض .

أضف إلى هذا وفرة الأحراش والأدغال التى ربما كانت السبب الرئيسى فى قلة الذين يذهبون ويجيئون فى هذه الآلاف من الكيلومترات من مجارى المياه الصالحة للملاحة ، والأحراش والغابات سبب عدم وجود الجسور (الكبارى) أو الخزانات أو الموانى على النهر ، ولا توجد كذلك على شاطئيه مصانع ، ولا مصائد أسماك ، ولا أماكن لقطع الأخشاب بالآلات ، ولا زراعة على النحو

المألوف لنا . وغابات الأمازون التى هى أكبر غابة على سطح الأرض هى العائق الذى يعطل وجود كل هذه الأشياء ، كل هذه الصور العادية فى حياة الإنسان .

ولا تتزاحم النباتات فى مكان ما من العالم تزاحمها هنا فى غابات الأمازون ؛ فالجو حار رطب حتى لتنبت الأشجار وتنمو وكأنها فى مدفأة ضخمة ، والغابات الكثيفة لا تعطى الإنسان فرصة الابتكار والعمل ، وفى كل مكان من العالم قهر الإنسان الغابة ، ولكن هنا فى حوض الأمازون قهرت الغابة الإنسان وحياة النبات هنا قوية عاتية لايستطيع الإنسان أن يقهرها بفأسه الواهنة الضعيفة ولا حتى بمنشاره الكهربى ، ولم يستطع الإنسان حتى أن يشق طريقاً فى الغابة ؛ ذلك لأن الأشجار تنمو وتسد الطريق التى يقطعها ، ومجارى المياه هى وحدها الطرق للانتقال من مكان إقامة إلى مكان آخر ؛ فليست هناك أرض للزراعة، كل ما هناك غابة .. غابة متصلة ممتدة ، والمناطق الصغيرة التى مهدها الإنسان لم تغير من الصورة العامة ، ومثلها مثل قطع قليل من الحشائش من حقل من الذرة يمتد لمسافة كيلومترين .

والأمازون فى مكان لايعتبر مناسباً ، ومع أن النهر أقوى أنهار العالم ، لا يلعب غير دور صغير فى مياه العالم ؛ ذلك لأن الأمازون يجرى فى منطقة لاحساب فيها للمخلوقات البشرية بقدر ما للأشجار والحشرات من تقدير ومكانة .



٨

غابة الأمازون

ما هى الصورة التى تبدو فيها هذه الأحراش ؟ وما الذى يجعلها تختلف عن غيرها من الغابات .

لو نظرت إليها من قارب يمخر عباب النهر لما رأيت غابة ، كل ما تراه جدار أخضر اللون ؛ فالسماء الزرقاء فوق رأسك ، والمياه الصفراء فى موطئ قدميك ، وكل ما على جانبك جدار أخضر ، والأشجار مثقلة بالنباتات المعترشة التى تشبه الحبال ، هذه هى الأشجار الطفيلية التى تتسلق أشجار الغابة ، وهى فى تسلقها تتلوى وتتعقد معاً حتى لتبدو فيما تفعل أشبه بخيوط نسيج ، ويخطر لك أنك ترقب سفينة يدعم دقلها وشراعها بالحبال ، وتظن جذوع الأشجار ساريات السفينة ، وهذه الأغصان كساحة أو صحن ، وتجد هنا وهناك بعض أشجار النخيل وقد بدا سعفها كريشات خضراء كبيرة ، ثم لا شىء ، فهذا كل ما يمكن أن نرقبه على حافات الغابة ، وكل ما وراء هذا سر غامض لا تكشف عيناك سره ولا تعرف خبيئته .

ومن الضرورى أن تدخل إلى الغابة لتعرف سرها ، فإذا ما فعلت ، طغت عليك تدريجياً كل مظاهر الغابة الاستوائية ، فالغابة مكان يحدث فيه أقسى صراع من أجل الضوء والحياة ، صراع جذع ضد جذع آخر . . وورقة شجر ضد ورقة أخرى ، نباتات تتدافع وتتزاحم كل تهدف لأن تعتلى الأخرى ، ويملأ النبات كل فراغ ، وترتفع . . ترتفع الأغصان والأوراق حتى تتجاوز هذه وتلك فى نموها كل مستوى يمكن إدراكه ؛ ذلك كل شىء يتحول إلى كتلة كثيفة من النباتات المعترشة قد كونت معاً نسيجاً معقداً .

ولا تستطيع أن تسير فى خط مستقيم مهما كان الاتجاه الذى تقصده ، بل فى بعض المناطق لا تستطيع حتى أن ترقب ماذا وراء هذا النسيج المعقد ، فضلا عن أن تشق طريقك وسطه ، أو تسير من تحته ، أو تدور حوله .

والحياة فى هذه الغابة الاستوائية جد مشغولة فى هذا الغسق الدائم ، وفى غبشة الليل المستمر ، ولكن الموت بدوره هو الآخر لديه ما يشغله ، وستعرف هذا عندما تجد أمامك جذع شجرة ملقى على الأرض مهاداً للسابلة ؛ لقد فقد هذا الجذع معركة البقاء ، هزم فى صراعه من أجل الحياة ، وتستطيع أن تقدر ما حدث لأنك ترقب شجرة تموت أمام عينيك، ترقبها وهى تسقط بين براثن شجرة من الأشجار الطفيلية ، وللأشجار الطفيلية أنابيب ماصة تمتص ما فى الشجرة التى تلتف حولها من العصارة ، ثم تطوق بأغصانها الشجرة متقدمة من فرع إلى آخر .

وتعرف إذ ذاك أن الشجرة ستموت لتوها ، وستسقط إلى الأرض ، وستبقى ملقاة مهاداً للسابلة كهذه الكتلة الخشبية التى فى موطئ قدميك ، ثم تحتاج بعد هذا إلى مئات السنين كى تنمو من جديد .

ولكن فيم الأسف والأسى هنا وماذا هى شجرة واحدة ، بل ماذا هى مائة شجرة حيث يوجد عدد لا حصر له من ملايين الأشجار ؟



« ترقب في غابات الأمازون أربعة مستويات مختلفة من النباتات »

هذه هي غابة الأمازون التي تمتد من ساحل الأطلنطي عبر أمريكا الجنوبية حتى جبال الأنديز .

والآن ، وقد اعتادت عيناك الضوء الأخضر القاتم ، ستلاحظ أن أشجار الغابة مختلفة الطول متباينة الارتفاع ، وستجد أربع طبقات منها ، وتتوالى هذه الطبقات الواحدة تعلو الأخرى .

وستجد أرض الغابة مغطاة بطنفسة (سجادة) من النباتات القصيرة ، وهي طنفسة كثيفة حتى إنها لتحجب عن النظر الأشجار التي تسقط إلى الأرض ، تحجبها فلا تكاد تبين لولا أن تصطدم بها في مشيتك ، وتعلو هذه الطنفسة بمجموعات من نباتات رقيقة ، من النخيل الواهن الأهيف ، وتكون الطبقة الثالثة من الأشجار التي تعيش في الظلال ، وهنا نجد ألواناً مختلفة من النخيل ومن الصبار ومن السرخس ثم تعلو هذه طبقة رابعة من الأشجار الضخمة التي تواجه أطرافها السماء وتمتد مثل المظلة فوق غيرها من النباتات .

وتتلفت من حولك محاولا أن تحصي مختلف أنواع النباتات في هذه الغابات المتشابكة المتتالية ، ولكن سرعان ما تفقد المجاز والسبيل وتخطئ العدد ، وتعرف



وتتكون الطبقة الرابعة من أشجار ضخمة تواجه أطرافها السماء »

أن فى غابات الأمازون من ألوان الأشجار ما يزيد على عددها فى أى مكان آخر من العالم ، ولك كل الحق فى تقديرك هذا ؛ فنى غابات حوض نهر الأمازون تجد نماذج تسعة أعشار أنواع النباتات التى فى العالم .

وهذا التنوع فى الغابة ساحر مثير ، ومن النادر أن تجد فى هذه الغابات الفسيحة شجرتين متجاورتين من نوع واحد ، ونحن الذين نعيش فى منطقة الجو المعتدل قد اعتدنا رؤية مناطق فسيحة مزروعة بنوع واحد من الأشجار ، نعرف غابات البلوط والسنديان والصنوبر ، كما نعرف غابات فيها على الأكثر ما يقرب من اثنى عشر نوعاً من الأشجار تتكرر المرة بعد الأخرى ، أما فى غابات الأمازون فمع أنك قد ترقب مجموعة من النخيل أو من أشجار الغابة ترى المئات من الأشجار المختلفة متشابكة معاً . وفى مناطق كثيرة من الغابة مناطق لا تزيد مساحتها على الفدان الواحد، ومع هذا نجد فيها عشرات الأنواع المختلفة من النباتات ، وقد أحصى أحد العلماء مائة وسبعة عشر نوعاً مختلفاً من الأشجار الخشبية فى منطقة لا تزيد مساحتها على كيلو متر وربع كيلو متر مربع .

ولكن الكثير غير هذا يستحق الملاحظة ، فبين الأرض وبين أغصان الأشجار مسافة طويلة ، وفى هذه المسافة تصطنع بعض الأشجار تركيبات لتدعمها ، دعامات مثل تلك التى نضعها لأبنية الكنائس القديمة ، على أن بعض الأشجار قد تتعدد جذورها مما يجعل قاعدتها كبيرة تغطى منطقة كبيرة من الأرض .

ومع أنه لايوجد فى الغابة إلا القليل من الخشب الرقيق . .ولا يوجد من الأشجار المفرطة الاخضرار إلا العدد القليل نسبياً ، تظل الغابات خضراء اللون دائماً طول العام ، فلا تعرف الغابة موسم تساقط أوراق الأشجار ، فجو الأحراش الدافئ لايرغم الأشجار على أن تخلع عنها رداءها من الأوراق لتبدأ سبات الشتاء . .

وتلقى فراشة ضخمة تشق طريقها نحوك ، فراشة براقة اللون ، وستدهش لجمال لونها ولكبر حجمها ، ولا تظنها نادرة، فحوض الأمازون موطن الفراشات وستجد فى أرض الأمازون من الفراش ما لا تجده فى أى مكان آخر من العالم وفى كل أوربا ثلثمائة وواحد وعشرين نوعاً من الفراش ، ولكن فى حوض الأمازون وفى جولة لساعة واحدة فى ضواحى مدينة بيليم Belém البرازيلية جمع أحد العلماء سبعمائة فراشة مختلفة الأنواع .

وللحشرات نصيبها من الغابة ، مثلها مثل النباتات ، وهنا تجد كل ما يمكن أن تتصوره من الحشرات من الفراشة بطول سبع بوصات إلى الخنفساء بطول ست بوصات إلى الحشرة الدقيقة التى لا تزيد على ذرة من الغبار

وتجد أيضاً النمل القارض ، وتقرض هذه المخلوقات العجيبة بأنيابها أوراق الأشجار ، وتأخذ ما تقرضه إلى مواطن إقامتها ، وتحمل كل نملة ما قرضته من ورقة الشجر عالياً كالمظلة ، ثم تسير المجموعة كلها فى نظام منسق كما يسير الجند فى قولات متراصة ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أن تفسح الطريق لفول النمل يتابع سيره ، لأنه لا يجوز التدخل ضد قول النمل عندما يكون فى





« توضح هذه الصورة المكبرة بقدر كبير — كيف يحمل النمل القارض قطعاً مستديرة من أوراق الأشجار »

إغارة للغزو . وإذا ما دخل النمل مستوطنة ما ، هرع الأهلون فاحتملوا أطفالهم ، وقادوا ماشيتهم ، وفروا من قريتهم لايلوون على شيء ، فالفرار أمام جيش النمل أفضل من التوقف لقتاله .

وهذه الفراشة التي رأيتها من أجمل الأشياء التي ستراها في الغابة ، والحشرة الصغيرة لها مظهرها الأخاذ من حيث اللون في الغابة ؛ ذلك لقلة الألوان في هذه الغابة الاستوائية ، ولعلك سمعت شيئاً غير هذا .. ولكن الواقع أنه لا توجد في الغابة غير ألوان قليلة فيما عدا اللون الأخضر ، صحيح أنه توجد في الغابة بعض الأزهار ذات الألوان البراقة ، ولكن من النادر أن تجد حشداً كبيراً من الألوان متراصة متجاورة ، ومن السهل أن تدرك هذا ، فإن أزهار الأشجار هي بدورها خضراء اللون بعامة ، وحتى لو لم تكن خضراء االلون فإنها تسقط بسرعة ، وقد ترقب اليوم شجرة مزهرة ، فإذا جاء الغد ضاعت الأزهار ، وتساقطت إلى الأرض ولاثني عشر شهراً قادماً لا تزهر الشجرة .

ولا تتعدد الألوان في الغابة ، ولكنك لا تقول : « كم هو جميل هذا ! » بل على النقيض فإنك تفكر : « كم هي قاسية هذه الوحدة . . وكم هي مقفرة قاتمة كئيبة هذه الحياة هنا ؟ ! »

وتعيش الغابة في صمت موحش .. فلا تسمع صوتاً ، بل أنت لا تسمع



« تثب القردة متصايحة عندما تهددها أفعى رقطاء »

السنجاب وسط الأشجار الجافة اليابسة ، ولا تسمع صوت الصيدنانى من السناجيب وهو ينهر صغاره أو يعنفها ، ولا صوت حوافر الغزال فى أثناء سيرها على الأرض الجافة الصلبة ، لا تسمع صوت فأس أو منشار قاطع ، ولا صوت صفير قاطرة ، ولا أزيز طائرة ، وكل ما يمكن أن تسمعه من حين إلى حين صوت طائر . أو قد تقطع حبل الصمت صرخة فزع عندما يمسك النمر الأمريكى الأرقط أو تسقط الأفعى الرقطاء على حيوان صغير فجأة فى غفلة منه .

وتبدأ القردة المولولة النادبة يومها صباحاً ، كما تنهيه مساء ، بالضجة والضوضاء. وقد تسقط شجرة ، أو قد يسقط غصن كبير من شجرة فيثير هذا أو ذاك ضجة طارئة لا تدرك كنهها ولا تستطيع تبينها ومعرفة سببها ، وتسمع صوتاً كطرقات قضيب من حديد فوق جذع شجرة جوفاء ، وتتلفت من حولك فلا ترقب شيئاً ، ويقول الهنود المحليون عندما يسمعون صوت الطرقات



« وفى جوار النهر ينقض اليغور على الخزيرم الذى لا يملك دفاعاً عن نفسه »

الأصوات التى لا يستطيع السكان المحليون معرفة أسبابها .

والتأثير الذى تتركه الغابة فى كل فرد ، حتى فى العلماء الذين تمتلىء الغابة بكل ماهوهام بالنسبة إليهم ، تأثير ملىء بالشعور بالسعة والكآبة والوحدة والصمت ، ومن الغريب أن المواطنين المحليين يتشبثون بالبقاء فى جوار النهر ، ومن النادر أن ينتقلوا إلى داخلية البلاد ..

ثم جاء وقت تيقظت فيه الغابة وكل هذه الشبكة الكبيرة من الأنهار برغم هذه العقبات والصعاب التى قامت فى طريق الإنسان ، كان هذا عندما اشتدت الحاجة إلى المطاط لعجلات السيارات والدراجات عند فجر اختراعها ، وكانت غابات الأمازون هى وحدها التى بها المطاط اللازم لهذه الصناعة ، ولكن عندما بدأت مزارع المطاط فى الشرق إنتاجها الضخم انتهت الضجة التى قامت فى غابات الأمازون ؛ ذلك لأنه لا يمكن مقارنة مطاط الغابة الذى ينمو وحده بمطاط المزارع الذى يمكن جنيه فى سهولة ويسر وبنفقات قليلة ،

فى المزرعة تتجاور كل أشجار المطاط على حين اننا لا نجد فى كل فدان من أرض الغابة أكثر من شجرة واحدة من أشجار المطاط .

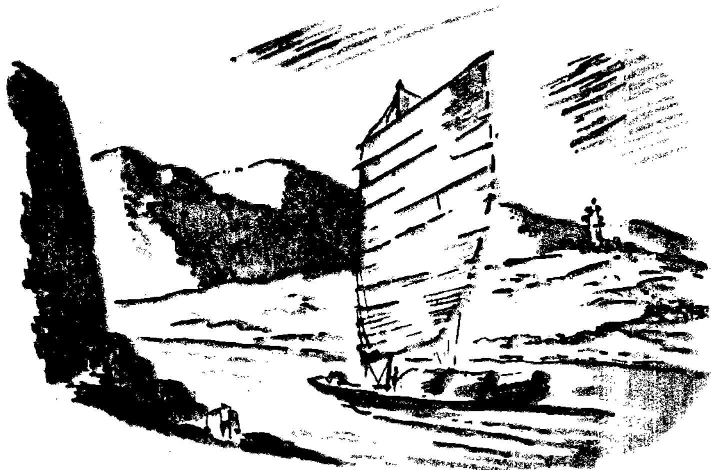
على أن الغابة الفسيحة قد تستيقظ من جديد وتعلو فيها أصوات البشر ، وتكثر الحركة فى مجرى نهر الأمازون جيئة وذهابا ؛ ذلك لأن فى الغابة الكثير من النافع عدا المطاط ، فيها الكثير من متباين أنواع الأشجار ، فيها شجر البلصا Balsa أخف وأرق أنواع الخشب ، وفيها الشجر السميك الخشب والذى ينغمر فى الماء فلا يطفو على سطحه لثقله ، وفيها أيضاً جوز كاشو Cashew nnts والجوز البرازيلى ، وفيها الأشجار التى تعصر لإنتاج الزيت ، وفيها أشجار الأرنوتو Arnotto التى تستخدم لصباغ الزبد والجبن ، ويوجد الشمع الكرنوبى Carnanba wax الذى يستخدم فى دهان الأحذية وشمع الأثاث وأسطوانات الحاكى ، وتوجد القلفونية Resins والصمغ والألياف والنباتات الطبية ، ولو أن العلم استطاع القضاء على الحشرات لانتهت الغابة الفسيحة من أن تكون حرجاً كثيفاً ودغلا موحشاً ، واتخذ الأمازون مكانه الصحيح بين أنهار العالم التجارية .



« فى أعماق الغابة يجمع الناس المطاط ويدورون كراته الكبيرة لتدخينها فوق نار هادئة »



الصين
التبت
إيشانج
شنج كنج
نهر يانجتسى
نانكنج
هنكاو
شنغهاى
يانجتسى



٩
شارع الصين الرئيسى

يقولون فى الصين للسفينة الصغيرة التى تحمل المتاجر عبر النهر : « ينك » ، ومن المناظر المألوفة فى مجرى نهر « يانجتسى – كيانج » أن ترقب هذه « الينك » مثقلة بالمتاجر تشق طريقها ببطء فى إجهاد عندما تصل إلى أصعب مرحلة فى رحلتها مجتازة فجاج يانجتسى الخطرة حيث تغلق الصخور الوعرة جزءاً من مجرى النهر فى كلا جانبيه ، وحيث ترغى المياه وتزبد فى اندفاعها وسط المساقط والدوامات.

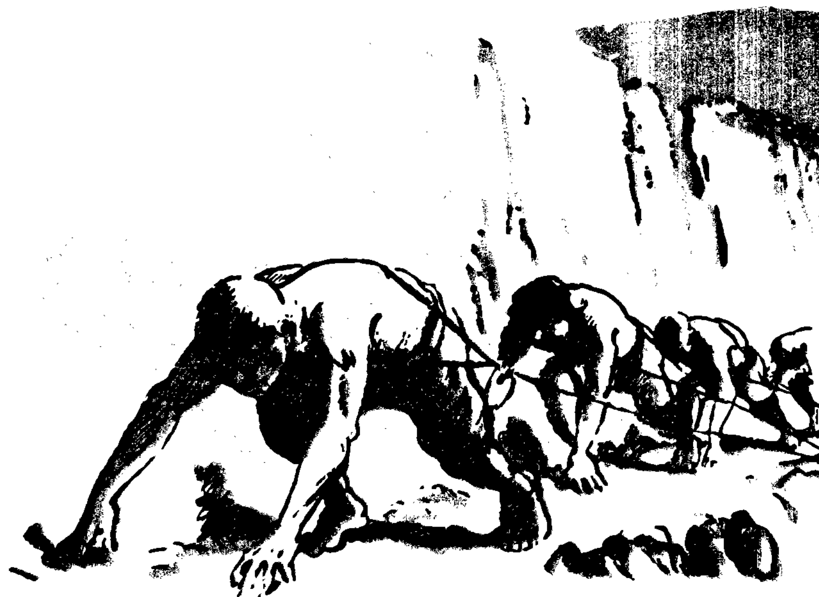
ويستهويك المنظر ، ولكن إذا ما رفعت بعينيك إلى الكتلة الصخرية فى مواجهتك رأيت منظرا آخر مخيفا ، سترى دربا ضيقا قطع فى الصخر ، والدرب ضيق حتى إن الركل والإيذاء لن يدفع بجواد أو حمار ليسير فيه ، ومع هذا ترى على طول الدرب سبعين أو ثمانين قد انحنوا وكأنهم يسيرون على أربع من الجهد الذى يبذلونه ، فقد ربطوا (أحزموا) إلى حبل ، وعد ببصرك مع الحبل إلى أسفل تجده مربوطاً إلى السفينة الصغيرة ، إن الرجال يجرون « الينك » فى النهر .



إنه لشيء مخيف أن ترقب مخلوقات بشرية تعمل كما كان رقيق السفن الشراعية يعملون فى الزمان القديم ، والرهيب أنهم يخاطرون بأرواحهم حيث ترفض الوحوش السير ، ولكن عملهم هذا شيء عظيم ، ذلك لأن هؤلاء الرجال الذين انحنوا نحو الأرض فى الدرب الضيق هم رمز انتصار الإنسان على الطبيعة ، ففى فجاج يانجتسى قهر الإنسان أصعب أنهار العالم .

وقد تسأل نفسك : « هل يستحق قهر نهر ما كل هذا الجهد . . وبكل هذا الثمن » .

وسيجيبك الصينيون : « لا خيرة لنا فى هذا ، فنحن لا نستطيع الحياة بغير النهر ، إنه هو الطريق الوحيدة ، وعشرات المدن العظيمة ومئات المدن الصغيرة لا يربطها بالبحر غير هذا النهر ، ثم إن نصف تجارة الصين كلها تنقل عبر هذا النهر »

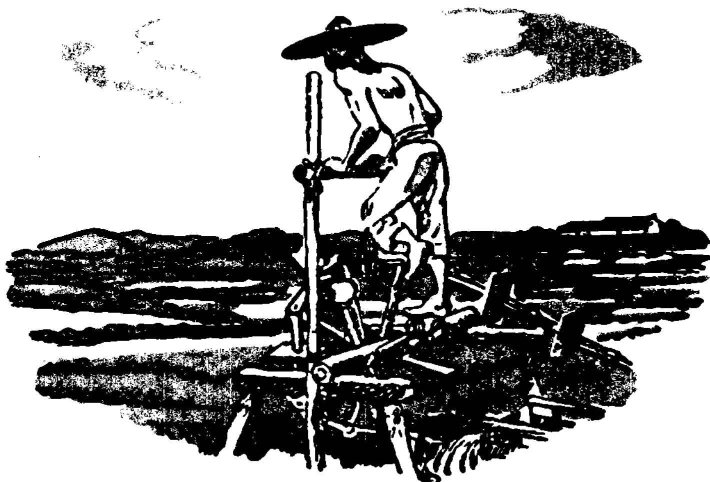


« يجر الرجال المربوطون إلى حبل الجر « الينك » فى نهر يانجتسى »

النهر . . . هذا الذى يسميه الملايين فى بساطة « كيانج » ، إنهم يطلقون عليه « تاكيانج » أى النهر العظيم ، أو يقولون عنه : « شانج كيانج » ، أى النهر الطويل . ولا يمكن أن يشك فرد فيما يعنيه هذا النهر بالنسبة للصين ، ذلك لأن يانجتسى هو الطريق الرئيسى فى الصين ، إن النهر يجرى عبر أرض الصين من الشرق إلى الغرب قاطعا إياها إلى قسمين متساويين : أحدهما لشماله ، والثانى لجنوبه . وتنصرف مياه النهر فى ثلث مساحة الصين كلها ، ويعيش فى حوضه مائتا مليون من الناس هم عشر مجموع الجنس البشرى ؛ وكلمة « النهر » وحدها كافية لتطلق على هذا المجرى المائى العظيم .

ولكن ما مكانة هذا النهر بين أنهار العالم ؟

فيانجتسى ليس أطول أنهار العالم ، ولا هو أوسعها ولا أقواها ، فأين يمكن



« وفى إدارته للعجلة الدواسة تخرج المياه لحقول الأرز »

أن يكون مكانه إذن بين أنهار العالم ؟

من الضرورى أن نمنح النهر مكان الشرف كأهم نهر فى العالم ، ذلك لأنه يخدم أناساً أكثر عدداً ممن يخدمهم أى نهر آخر . ثم هو يؤدى للناس الذين يعيشون فى حوضه خدمات هامة حاسمة ، وبهذا – إلى غاية ما يمكن أن يكون للكلمات من معنى – فإن نهر يانجتسى شريان الحياة للصين ، فهو ليس بالنهر التجارى الذى تنقل المتاجر عبره وتوزع فحسب ، إنه نهر زراعى أيضاً ، ولو نظرت إلى نهر يانجتسى من علٍ وأنت فى طائرة ، لوجدت النهر يروى بمياهه ملايين المزارع فى كل الأرض من حواليه .

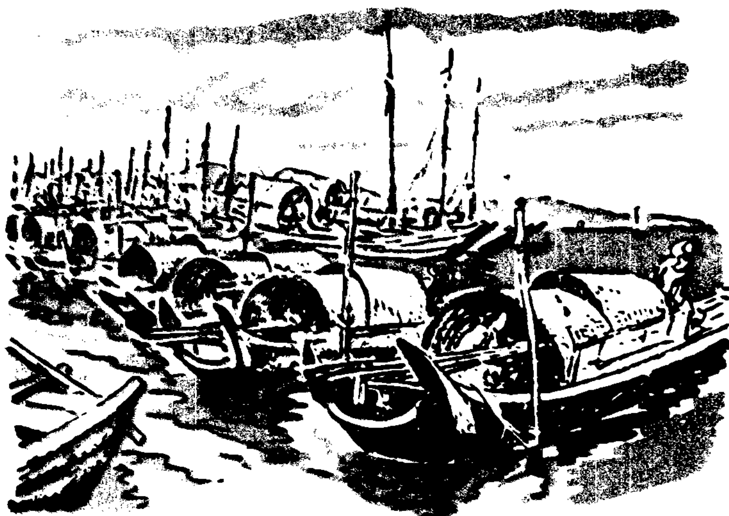
وتمتد من النهر شبكة من الحفر . . ومن علٍ تبدو هذه الحفر كطرقات مدينة ، وتمتد هذه الحفر إلى مزارع صغيرة ، مزارع فى مساحة حدائق الدور حيث يعمل النساء والرجال عملا لا نهاية له، وبآلات يدوية عرفتها العصور القديمة يزرعون الأرض ويمدونها بالمخصبات وينقلون النبات ويستأصلون النباتات الطفيلية ويجمعون المحصول ، ويحققون الغذاء لأسرهم وللأمة ، وفى كل مكان

لجنوب نهر يانجتسى ترى الفلاحين يعملون على « العجلات الدواسة » لإخراج المياه من باطن الأرض إلى أحواض من الخشب لغمر حقول الرز ؛ ذلك لأنه إلى جنوب يانجتسى تقع كل حقول الرز فى الصين ، أما للشمال من النهر فتوجد حقول الغلال والذرة والحبوب .

والغريب أن هذا النهر الذى يعتمد عليه عشر مجموع الجنس البشرى يجرى لنصف طوله دون أن يكون له أى نفع للناس ، فمنبعه فى الأرض العالية الموحشة فى شمال التبت ، ويندفع النهر ساقطاً لارتفاع ثلاثة أميال ثم يطغى ويتعثر لمئات الأميال فى خندق عميق موحش ، ويملأ النهر هذا الخندق الضيق ، وتندفع مياهه ترغى وتزبد وسط الجدران العالية الوعرة التى تحتجزه ، إنه يسير فى ثورة غضبه وسط ظلال مخيفة ، فهو نهر غير مروض ، ثم هو لا يصلح للترويض .

وفجأة يتحول النهر متجهاً للشمال ، ثم يتعرج فى سيره نحو الشرق ، وهنا يلتقط النهر بعض فروعه وروافده ، ويصطدم بالجبال فيشق ممرات ضيقة عميقة وسطها ، وفى الألف الميل الأخيرة من رحلته التى تصل إلى ثلاثة آلاف ومائتى ميل يكون يانجتسى النهر المرح المشرق الذى تمجده بلاد الصين وتباركه .

فإذا ما خرج النهر من هذه الفجاج حدث تغير كبير فيه ، فإنه يسير متموجاً متعرجاً وسط أرض خصبة كانت يوماً ما أسفل سطح البحر ، وهنا تنتهى الوحدة الموحشة التى كانت طابع النهر ، فتقوم على جانبيه المدن والقرى والمزارع ، ولكن المناطق الرملية المضللة للسفن لا تزال قائمة فى بعض نقاط مجراه ، على أن النهر على طول مجراه بعد ذلك حتى مصبه يكون مليئاً بالحركة ، فنجد المئات والألوف من الينك وغيرها من السفن التى تسمى السنبان بأشرعتها المرقعة وسفن الصيد والسفن النهرية من حجوم مختلفة متباينة كبيرة وصغيرة تمخر النهر جيئة وذهاباً ، ونلتقى العائمات والمنازل النهرية المشيدة على القوارب تمخر النهر متجاورة بالآلاف مكونة مدناً طافية فوق الماء ، ويتأثر لون مياه النهر بالطمى الأصفر الذى جاءت به فى اندفاعها وسط السدود والخوانق والفجاج ، فإذا



« يعيش الآلاف من الصينيين فى منازل عائمة راسية على شاطئ النهر »

ما اقترب يانجتسى من مصبه أسقط عنه الطمى الأصفر ليقيم دلتا عظيمة فسيحة ، وعلى مسافة كبيرة من الساحل يكسو الطمى الأصفر بحر شرق الصين باللون الأصفر .

ويقص علينا العلماء أن حضارة الصين لم تبدأ على هذا الطريق المائى الرئيسى ، بل بدأت على نهر طويل آخر للشمال منه ، هو نهر « هوانج هو » النهر الذى نقول عنه : « النهر الأصفر » . ويبدى الصينيون أسفهم وألمهم عند حديثهم عنه ، لأن النهر كثير الفيضان ، ثم إن فيضانه مخيف رهيب ، ولا تكثر الحركة على نهر هوانج هو ، إذ تسده الحواجز الرملية. ولكن من الواضح أن النهر لم يكن كذلك منذ أقدم العصور ، فمنذ ألفين وخمسمائة سنة عنى الصينيون بحفر قناة تربط « هوانج هو » بنهر يانجتسى ، وفى تاريخ لاحق مدوا هذه القناة العظيمة شمالا إلى بكين وجنوباً إلى « هانجشاو » ، وبذلك كانت جملة طول القناة ألفا ومائتى ميل (١٩٣٠ كيلو مترا) ، وقد غطت الرمال جزءاً من هذه القناة الآن ، ولكن الجزء الذى بين النهرين لايزال

قائماً ؛ فهى دليل واضح على أن الصينيين كانوا منذ عصور مغرقة فى القدم مهندسين مهرة .

ويقول العلماء : إن الحضارة بدأت على نهر هوانج هو فى نفس الطابع الذى بدأت فيه الحضارة المصرية القديمة ، قامت بسبب الحاجة إلى العمل للسيطرة على النهر ، فقد كان النهر يوم ذاك يحمل ركاماً من الغرين الأصفر كل صيف فيسد الغرين مجرى النهر ، فيحدث الفيضان وتطغى المياه على جانبى النهر فتغرق المزارع والقوى ، وشحذ المهندسون الصينيون عقولهم ، وفكروا فيما يجب أن يفعلوه وكانت لدى مهندس اسمه « يو » فكرة ، وكل الأعمال العظيمة كانت فى البداية فكرة ، وبدلا من أن يرتفع الرجل بجدارى النهر قرر أن يزيد من عمق مجراه ، وكان نجاحه عظيما حتى اختاره الناس إمبراطوراً على الصين .

ويقال : إن « يو » قد عمل لتسع سنوات حتى عاد بمياه النهر إلى المجرى الصحيح ، فى هذه السنوات التسع لم يفكر الرجل فيما يأكل أو يلبس ، شغلت كل حواسه بالعمل حتى إنه ليمر بباب داره فلا يلقى بنظره إلى داخله لو سمع صوت بكاء طفله ، ويذكر الصينيون « يو » حتى اليوم ، لأنهم يذكرون دائماً كلمات قديمة جاء فيها : « ما أعظم ما حققه "يو" ولولاه لكنا اليوم أسماكا تسبح فى الماء » .

ولكن النهر الذى سيطر عليه « يو » يعتبر اليوم من الأنهار القاتلة للجنس البشرى ؛ فالمجاعة تجىء فى أعقاب الفيضان ، وتقتل المجاعة عدداً أكبر ممن يغرقهم النهر ، والمشكلة هى صعوبة مواجهة تراكم الغرين الذى يرفع من قاع مجرى النهر ، حتى إنه فى بعض أجزاء النهر يجب الارتفاع بالجسور لخمس أو ست أقدام فى كل سنة :

ويحتاج نهر يانجتسى أيضاً إلى زيادة ارتفاع جسوره ، وهو يقطع كل مجراه السفلى بين جدارين من صنع الإنسان ، ومع أن النهر أقل تدميراً وإتلافاً

من « هوانج هو » إلا أنه ليس سلس القيادة دائماً ؛ فبين الحين والحين يثور النهر ويهدم جداره فى بعض النقاط ، وتدمر القرى وتضار المدن وتغطى آلاف الكيلومترات من الأراضى الزراعية بالمياه ، وقد فقد خمسة عشر ألفاً أرواحهم نتيجة لفيضان سنة ١٩١١ :

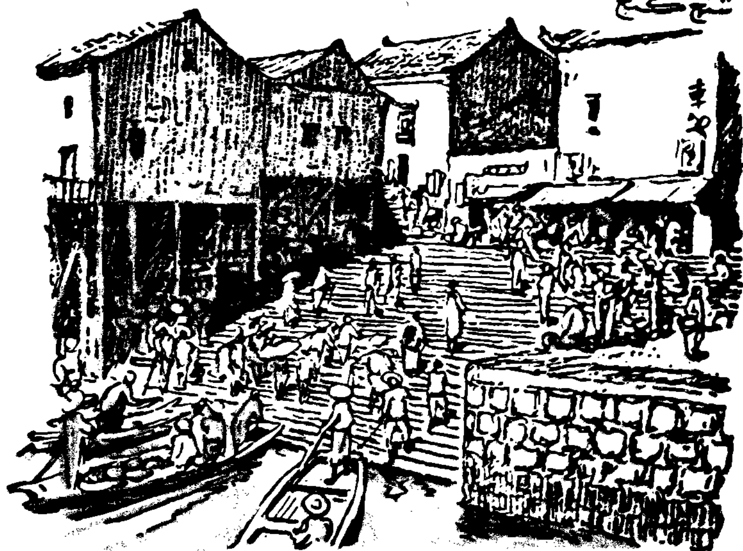
ولكن الصينيين شعب صبور ، وهم لا يشكون نهر يانجتسى ، فهو يبدو رحيماً بهم مترفقاً عندما نقارنه بنهر هوانج هو ، وهم يعتبرون فيضانه شيئاً رتيباً ، ويتحدث أولئك الذين يفهمون هذه الأشياء ، يتحدثون عن خزان يمكن إقامته لحجز المياه فى الفجاج خلفه ، ولكن الفلاحين لا يفهمون هذا .

ويقول الناس ، عندما يثور النهر ويحطم هذه الدعامات على جانبيه : « إن تنين النهر غاضب ! » وكل ما يفعلونه ، هو أن يحملوا أطفالهم وما يستطيعون من متاعهم ثم يذهبوا للإقامة على الشواطئ العالية . فإذا ما هبط منسوب المياه عادوا ثانية إلى مناطق إقامتهم الأولى فأعادوا بناء منازلهم من الطين ، وزرعوا حقولهم ، وسدوا الثغرات التى شقها النهر فى الجسور ، وتابعوا الحياة كما كانوا يعيشونها من قبل .

إنهم يتقبلون الشر كما يتقبلون الخير ، ويعتبرون الفيضان التقليدى ثمناً بخساً يدفعونه لسداد بعض ما هم مدينون به للنهر .



« ويصيح الناس عندما يبدأ الفيضان المدمر : إن تنين النهر غاضب »



١٠

« ينك » فى أفاجيج يانجتسى

عندما اجتاح اليابانيون أرض الصين انتقلت الحكومة إلى « شنج كنج » :

وقال الصينيون لأنفسهم : « لن يستولى العدو على شنج كنج فهو لن يستطيع السير مع النهر عبر الأفاجيج والخوانق » .

واستولى اليابانيون على شنغهاى عند مصب النهر ، وتحركوا مع النهر فاستولوا على نانكنج العاصمة ، واحتلوا هانكاو مدينة الصين الصناعية والتى هى بالنسبة للصين بمثابة بيتسبرج للولايات المتحدة ، واستولوا على المدن التى على نهر يانجتسى حتى إيشانج Ichang[1] الباب الذى يؤدى إلى الفجاج ،

(١) إيشانج وتكتب Ichang فى غرب ولاية هوبيه ، وبالرغم من أن سكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة فقط تلعب دوراً اقتصادياً هاماً فى ولاية شيزوان ووادى يانجتسى . وفى سنة ١٩٥٨ كانت واحدة من المدن الخمس فى هوبيه التى لها إدارة محلية ، ويقع على مسافة صغيرة لشمالها خزان به محطات للقوى المائية لها أثرها فى تصنيع وسط الصين ، وتصل إليها السفن حمولة ألف طن فى موسم الفيضان ، وتلتقى عندها حركة النهر لشمال وجنوب النهر .
(معجم دائرة المعارف البريطانية — طبعة سنة ١٩٦١ صفحة ٥٨ مجلد ١٢)

ولكنهم لم يستطيعوا التقدم خطوة واحدة بعد إيشانج :

ولربما لا تكون هناك رحلة خطرة على نهر ما فى العالم مثل هذه الرحلة لثلثمائة وخمسين ميلا بين مدينتى إيشانج وشنج كنج ؛ ذلك لأنه فى هذه الرحلة القصيرة نسبياً لا توجد سفينة واحدة لم يحدث أن نجت من الغرق بعد أن كان بينها وبينه قيد شعرة ولو مرة واحدة ، والواقع أن سفينة من كل عشر سفن قد أتلفت ، وسفينة من كل عشرين سفينة قد غرقت ، ولا يعرف أحد على التحقيق عدد الأرواح التى فقدت فى الماء :

ومع هذا — ويمكن أن تصدق ما أقول — يقطع بعض الناس هذه الرحلة من إيشانج إلى شنج كنج لا لقصد غير ما فيها من متعة المخاطرة ، ذلك لأنه لا توجد فى العالم منطقة أخاذة وأكثر روعة من فجاج يانجتسى ، فعلى طول النهر تبقى الكتل الصخرية التى ترتفع لمئات الأمتار ، تبقى النهر فى مغاليق المجهول .

وتتعدد ألوان الصخور ، منها الرمادى والأشهب ، ومنها الأرجوانى البراق ، ومنها الأخضر اللماع الذى تغطيه الأشجار ، وبعضها تعلوه مزارع فى طنف وأفاريز ضيقة حتى لتبدو كأجزاء من لغز الصور المقطوعة ، ووسط هذه المياه الدوارة يكافح « ينك » صغير ضد التيار ، ويخوض غمار معركة فى كل سنتيمتر يتقدمه للأمام فى النهر ، ويبدو « اليتك » الصغير كذرة صغيرة وسط الصخور العالية والأبراج الشاهقة التى تكون الأرض الخلفية :

فأى جهد بشرى ، وأية مهارة وأية مشاعر للقلق ! . . وكم يتصبب من العرق كى يمكن نقل ستين طناً من المتاجر وسط هذا المنظر الرهيب الذى يبعث الرعب فى نفوس الملاحين ؟ ! ففى الظروف المواتية تقطع السفينة الصغيرة الرحلة من إيشانج إلى شنج كنج فى خمسة وعشرين يوماً مع متابعة السير من الفجر إلى غروب الشمس فلا يتحرك شىء ما فى يانجتسى طوال ساعات الليل ، ومعنى هذا أن السفينة تقطع أربعة عشر ميلا فى اليوم : فإذا كان منسوب

المياه فى النهر منخفضاً احتاجت الرحلة إلى ستين يوماً بمتوسط ستة أميال ونصف ميل فى اليوم بين الفجر وغروب الشمس ، مع أن الإنسان يقطع الأميال الستة ونصف الميل والتى تصل إلى عشرة كيلومترات ونصف كيلومتر فى ساعتين اثنتين .

وليست هذه السفينة الصغيرة التى يقال لها « الينك » جميلة المنظر ، فهى مجرد سفينة نقل ولا يتوقع منها إلا أن تقطع رحلتها بسلام ، والسفينة بطول أربعين متراً وعرض أربعة أمتار منخفضة الأجناب ، مربعة المقدمة ، مع سكان (دفة) عالية مرتفعة : وتحمل بالإضافة إلى المتاجر الملاح وأسرته ؛ إذ أنها تعتبر موطن الأسرة ومكان إقامتها ، وتحمل أيضاً نحو مائة رجل ، سبعون منهم أو ثمانون هم الذين يتولون جر السفينة على الممر الضيق الخطر فوق الصخور :

ويعمل هؤلاء الرجال وهم شبه عراة ، وقد صفوا أجسامهم وتوترت عضلاتهم وأحاط كل منهم صدره بقطعة من حبل تتصل بأنشوطة قوية بالحبل القوى الذى تُجر به السفينة، وقد ينقطع هذا الحبل مع أنه قوى يحتمل هذا الشد ، ومن ثم يجب أن يتخلص الرجل من هذه الأنشوطة لينجو بنفسه وإلا جره الحبل معه ، ويسير الرجال على جانبى الحبل بالتبادل فرادى ، الواحد إثر الآخر ، وينشدون الأغانى التى تضبط موسيقاها خطوة السير :

وعلى طول الحبل يجرى ثلاثة رجال جيئة وذهاباً وقد أمسك كل منهم بيده قطعة منفلجة منشقة من الغاب ، هؤلاء الثلاثة هم رؤساء فرق (أطقم) الجر ، واجبهم أن يتيقنوا من أن الرجال الذين يجرون السفينة يتابعون السير قدماً للأمام ، وإلا أفلتت السفينة مع التيار القوى وسحبتهم جميعاً معها إلى الماء ، ولربما إلى الهلاك :

ويتصايح هؤلاء الرؤساء للحث على السير ، ويضربون بهذه العصى من الغاب ظهور الذين يتراخون عن الجر ، فمن السهل تبين من يبذل جهده فى جر



« إن عمله إطلاق (تخليص) حبل الجر بعيدا عن الصخور »

السفينة ممن لا يبذل جهداً ما : على أنه فى طوال الوقت يسمع هؤلاء الرؤساء أصوات قرعات الطبل تجىء إليهم من « الينك » ، وقرعات الطبل هذه تترجم إلى أوامر ، فهى تحدثهم بالحركة أو بالتوقف ، فنى بعض الأوقات قد يكون من الواجب التوقف عن جر السفينة تماماً :

ويجىء فى المؤخرة — وراء جماعات الجر — ثلاثة رجال يسيرون متوزعين بفاصل بين كل منهم والآخر ، وواجب هؤلاء الرجال الثلاثة ألاّ يتعلق الحبل الذى يصل طوله إلى قرابة أربعمائة متر ، بأى نتوء فى الصخر ، فإذا ما تعلق الحبل بالصخر أسرع أحدهم فرفعه ، وكثيرون من هؤلاء يسقطون فى الماء أو تتكسر عظامهم ، لأن تسلق الصخور لرفع الحبل قبل أن ينقطع بثقل السفينة التى تقاوم الجر فى الطرف الآخر من الحبل عمل خطر . ولكن العمل الأخطر هو عمل الرجال العراة الذين تراهم جاثمين فوق الصخور عند حافة النهر السريع الجريان ، وعملهم أن يسبحوا وراء حبل الجر لتخليصه وإطلاقه من الصيخور التى فى مجرى النهر ، وفى كل ساعة من ساعات النهار يخاطر هؤلاء بأرواحهم ، وكم من مرة وسط هذه الفجاج سبح هؤلاء الرجال

وقد أحاط كل منهم صدره بحبل محاولا إنقاذ سفينة يجرفها التيار بعد أن انقطع حبل الجر ، إنهم يقومون طوال اليوم بأعمال البطولة ويحترمهم كل فريق (طاقم) السفينة لبطولتهم :

ولكن ماذا يكون الموقف فى « الينك » ؟

إنها تسير متمهلة خطوة إثر أخرى محاولة أن تدور حول نتوء عظيم بارز يمتد لداخل النهر ، وعلى أحد جانبيها تنسكب المياه على مثال انصباب المياه التى تدير عجلة طاحونة الهواء . . وعلى الجانب الآخر تدور الدوامات حول نفسها ، ويقف قائد السفينة الذى يتولى التوجيه ، فى مقدمة السفينة يصدر أوامره للخمسة أو الستة عشر من الملاحين الذين يعملون على جانبيها لمعاونتها فى كفاحها للتقدم للأمام :

وأسفل الصارى يقعد قارع الطبل القرفصاء وقد وضع طبلته بين ركبتيه يقرعها بعصوين صغيرتين نوبة « الانصراف » Tattoo ، وهذا قرع للطبل متعارف عليه بين ملاحى السفن الصغيرة فى نهر يانجتسى يعرف منه أولئك الذين يجرون « الينك » أن كل شىء يسير كما يحبون ، فإذا ما تعقد حبل الجر حول نتوء صخرى أو حدث عائق ما غيّر قارع الطبل دقاته فيتوقف الرجال عن الجر :

وعلى طنف مرتفع فى غرفة السكان (الدفة) يقف رجل يمسك بيديه ذراع الدفة بطول أربع عشرة قدماً ، وهو رجل خبير بعمله ، إنه لا يعرف شيئاً عن الآلات ولا يطل فى بوصلة ، إنه يعرف نهر يانجتسى فحسب ، فهو قد ذرع النهر جيئة وذهاباً لعشرات المرات ، ويعرف كل حفرة فى مجراه وكل دوامة فيه . إنه يستطيع أن يقرأ ما فى الماء ، ونظرة منه يمكن أن يعرف منها ماذا تحت السطح العلوى للنهر إنه لا يقاتل النهر بل إنه يلاطفه ويتملقه ، وفى المنطقة بين هانكاو وإيشانج حيث تكون ركام الرمال جانبى النهر لا يحاول



« يستخدم ماسك الدفة عموداً بطول أربع عشرة قدماً لتوجيه « الينك » الصينى »

مقاومة التيار ، بل إنه يستمر فى دفعه للسفينة الصغيرة للأمام وللخلف داخل المجرى عارفاً بأنه سيحتاج إلى ضعف الوقت ليصل إلى شنج كنج لو أنه بقى طافياً فوق الماء ، وهو هنا فى هذه الفجاج ينتفع من كل تيار ومن كل دوامة ، بل حتى من المياه التى تدفعها السفينة الصغيرة خلفها : إنه يرقب ما أمامه لينتفع من كل ما يراه ، ويدور بعينيه نحو الكتلة الصخرية العالية فيرى بعض رسوم بيضاء فوق أرض خلفية قاتمة السواد كالقطران، إن هذه الرسوم تعاونه ليقدر ارتفاع المياه ، وفى الفجاج قد يرتفع منسوب المياه نحو خمسة عشر متراً فى يوم واحد، فإذا ارتفع المنسوب كان ما يقرب من ثلاثين متراً فوق أدنى منسوب للمياه .

ولكن أين يكون الربان ؟

إنه جاثم فوق ظهر السفينة يراقب فى قلق كل ما يدور من حوله ، ففى لحظة ما تتعلق عيناه بسلسلة من الصخور ، أو بكثبان من الرمل تبرز فوق صفحة الماء، ويكون قلبه فى فمه عندما تبدأ السفينة دورانها حول هذا العائق ، وهو

يعرف أن منسوب المياه منخفض ، وأن الصخور تطل من فوق صفحة الماء كالتنين ، فهل يقدر الملاح الذى يتولى القيادة والتوجيه هذا العائق ؟ وهل يتحمل حبل الجر ؟ لو انقطع الحبل الآن لكانت النكبة محققة ؛ ذلك لأن أمامه سلسلة أخرى من الصخور أو مجموعة من كثبان الرمال تنتظره لتحطم السفينة التى ستندفع على غير هدى لو انقطع الحبل :

ويسمع صوت « المرشد » عالياً فوق زئير الأمواج ، يسمعه من مكانه فى مقدمة السفينة يصدر الأوامر ، ويسمع قرعات الطبل ، ويرقب أولئك الذين يجرون السفينة وقد تشبثوا بالأرض يجهدون كل عضلة فى جسمهم لمتابعة التقدم ويرى رؤساء الفرق (الأطقم) وهم يعدون فوق الكتلة الصخرية جيئة وذهاباً ، يرى هذا كله ويحس بالسفينة تخطو وئيداً للأمام قدماً بعد أخرى ، ويراها تتسلل فى مسيرها بجوار التنين المخيف .

ويبدو البشر فى وجه الربان ، ولكن فى اللحظة التالية يعاوده القلق ، وهناك الكثير الذى يجب أن يقلقه . . . الصخور ، الكثبان الرملية ، مستوى سطح الماء الدائم التغير : إن تيار الماء يصل إلى ثلاثة عشر ميلا فى الساعة ، وحبل الجر يتعلق بالصخور المرة بعد الأخرى ، والحبل دائماً عرضة للقطع برغم عنايته به ، وبرغم أنه ينفق المال لشراء حبل جديد عند بدء كل رحلة ، ثم هذه الدوامات الخطرة . إن التنكب فى الدوامة معناه أن كل شىء قد انتهى ، لأن السفينة لن تستطيع الخلاص ، لقد حدث هذا قبل يومين اثنين ، تنكبت « الينك » فى دوامة ودارت رأساً على عقب ، ولسوء الحظ كانت سفينة بخارية قادمة واصطدم بها « الينك » ، ولولا قوارب النجاة لكان عدد أكبر من الملاحين قد غرق :

ثم هذه المناطق التى يسرع فيها تيار الماء . . . إن بين إيشانج وشنج كنج عشرين منطقة ، ولكن لا تتماثل اثنتان ، فلكل منها أخطارها الرهيبة ، إن



« تنكبت الينك فى دوامة ودارت رأساً على عقب »

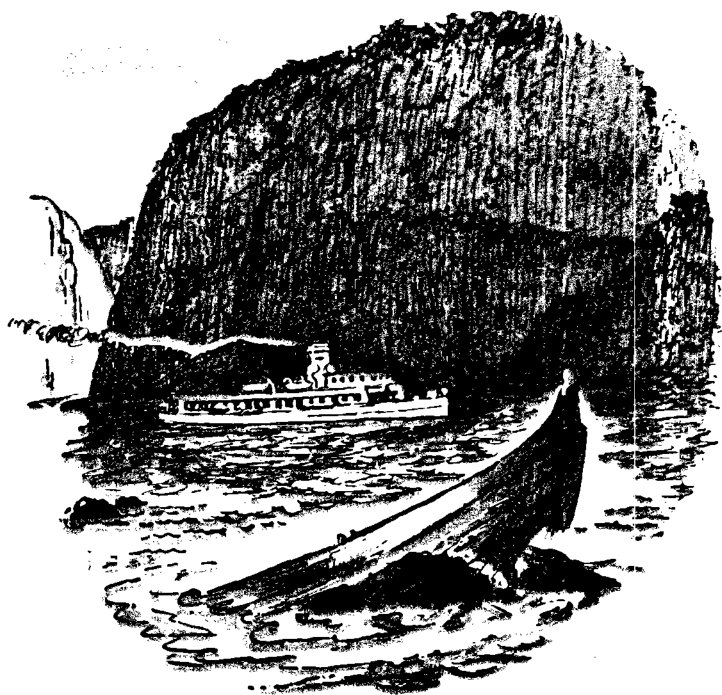
الربان يعرف أن فى صحبته أمهر مرشد . . . تلك المنطقة قبل شنج كنج مباشرة ، وهم يسمونها « أخدود التين الحديد » ، لقد تكون فى حياة أبيه عندما انهارت منحدرات التلال وانزلقت إلى الماء، إنه أسوأ منطقة فى كل النهر ، إذ يضيق المجرى من ثمانمائة ياردة إلى مائتى ياردة ، ويتحول النهر المنقبض المنكمش إلى مسقط من مساقط المياه الضيقة ، إن هذا يجعل قلب أشجع الرجال يثب إلى حلقه ، إنهم يقولون : إنه فى العام الماضى فقد ثلاثة رجال كل يوم أرواحهم فى هذا الأخدود .

وتقترب « الينك » من منحنى فى النهر . وهناك توجد محطة إشارة ، إن المحطة تبعث بإشارة تقول فيها : « سفينة بخارية تقترب » :

وللسفينة البخارية حق المرور أولا ، ويكون المرشد قد أصدر أوامره بتوجيه « الينك » إلى جانب النهر لتفسح الطريق للسفينة التجارية ، إن هذا يعنى مزيداً من التأخير ، وملاحو الينك أن يقنعوا بالمياه التى تدفعها محركات السفينة

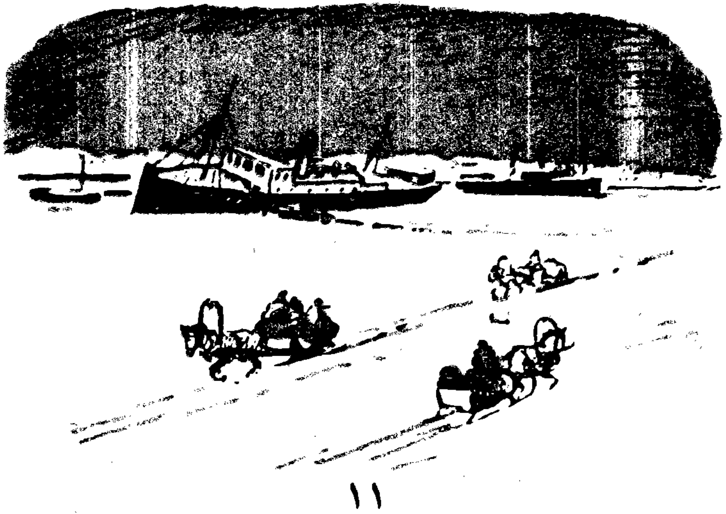
البخارية ، ولكن فى وقت ما قد تكون هذه المياه التى تدفعها السفينة البخارية للخلف قوية فتحتاج « الينك » لساعة كاملة حتى تستطيع العودة لطريق سيرها من جديد .

وهذه السفن البخارية مجموعة ممقوتة من السفن ، إن الربان يبغضها أيضاً ، فهى أسعد حالا عند عبورها الخوانق والسدود ، ومع هذا فحتى أقوى السفن البخارية لا تستطيع اجتياز بعض الخوارق إلا بأن يجرها الملاحون ، ولكن السفينة البخارية تستطيع أن تقطع هذه الثلثمائة والخمسين من الأميال فى ثلاثة أيام . . .



« تمر السفينة البخارية فى يسر وسط هذه الممرات الضيقة بين الجبال العالية »

ويعرف الربان أن المستقبل للسفن البخارية ، ولكن المستقبل ما زال بعيداً ؛ وهو يعرف بأنه سيقطع الرحلة جيئة وذهاباً مرات كثيرة قبل أن يكتسح المستقبل كل هذه السفن الصغيرة من النهر ، إنه يهتز فرحاً من هذه الممرات الضيقة بين الجبال الصخرية التى تتطلب غاية ما فى طاقة الملاحين والسفن ، ولكنه مع هذا فخور بسفينته الصلبة العود ، إنه لا يبادلها بسفينة بخارية ، لقد ولد فوق ظهر « ينك » كهذه ، وسيموت هو كذلك فوق ظهرها .



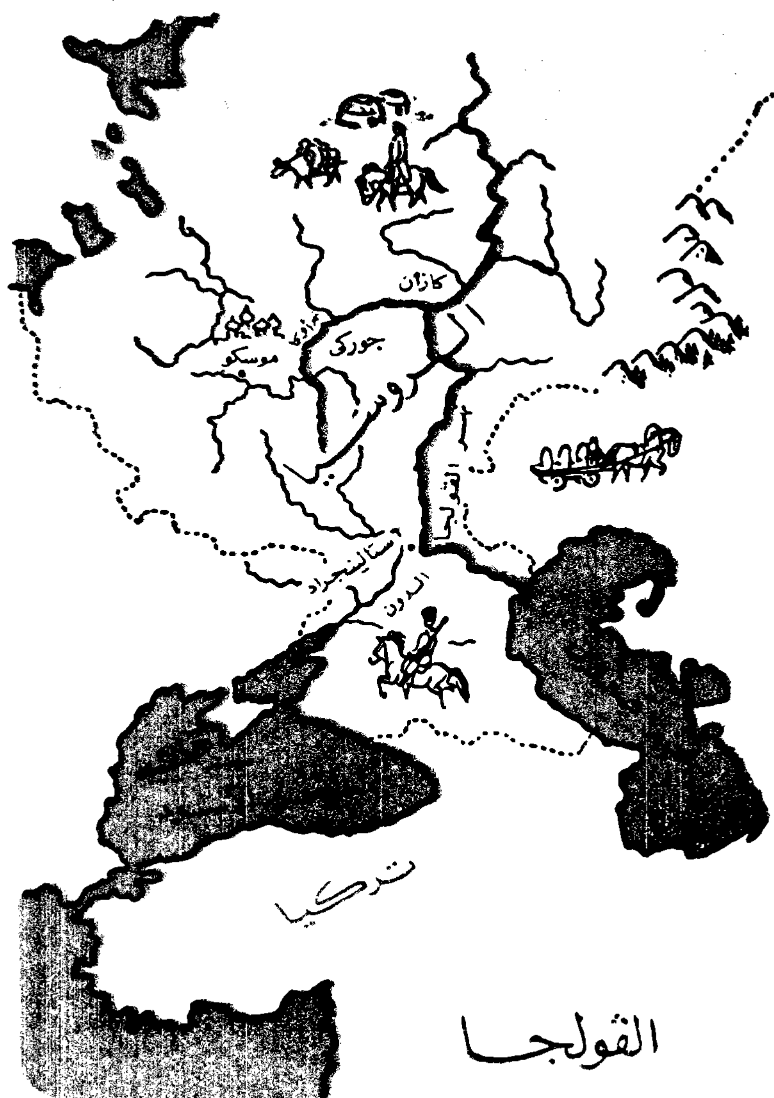
١١

الخروج إلى العالم

لو نظرت إلى خريطة أوربا وقارنت بين سواحل روسيا ، وسواحل بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا أو إيطاليا أو اليونان لوجدت روسيا أقلها سواحل ، وحتى مع هذا فإن الساحل ليس بذى نفع كبير لروسيا ؛ ففى الشمال المحيط المتجمد الشمالى والبحر الأبيض ، ويتجمدان كلاهما لتسعة شهور من العام ، ويتجمد كذلك خليج فنلندة لنصف هذا الوقت ، بل حتى بحر قزوين يتجمد طرفه الشمالى ، ولا يزيد بحر أزوف عن أن يكون مستنقعاً .

فماذا كانت تصبح روسيا لولا أنهارها ؟

إن أنهار روسيا هى التى حالت دون بقائها قطراً مغلقاً ، إن أنهارها هى التى أخرجتها إلى العالم ، وكان نهر الفولجا أكثر من غيره من أنهارها هو الذى فعل هذا ، وإن لم يكن أطول أنهارها ولا أكثرها سعة ، ولكن لا تعطل مجراه المناطق التى تجرى فيها المياه بسرعة لهبوط قاع النهر هبوطاً فجائياً على مثال نهر الدنيبر ، بل يجرى النهر دون متاعب وسط البلاد ثم يدور للجنوب ليصب فى بحر قزوين .


كازان
جوركى
موسكو
روسيا
الفولجا
ستالينجراد
الدون
تركيا
القولجا

إن نهر الفولجا هو الذى أوصل روسيا للشرق حيث يمكن أن تصلها منتجات آسية بالسفن والقوافل ، ومن يدرى ؟ فلربما لو لم يكن نهر الفولجا لكانت روسيا مغلقة فى قارة أوربا . إن نهر الفولجا هو الذى وجه أنظار الروس إلى آسية ، إن نهر كاما — أحد فروع الفولجا — هو الذى قاد الرواد الأولين إلى سيبيريا حيث كسبوا إمبراطورية بطول ستة آلاف وأربعمائة كيلومتر وعرض ثلاثة آلاف ومائتى كيلومتر :

وللنيل وللأمازون وليانجتسى منابعها التى تأخذ بالألباب ، ولكن نهر الفولجا يخيب كل من يبحث عن مصادره ، فهو لا يثب إلى مسقط مائى ولا يتعثر فى انحداره على جبل ولا يطغى فى غور ، فإن روسيا سهل عظيم فسيح قليل الانحدار ، والأرض بين موسكو وخليج فنلندة أعلى قليلا منها فى أى مكان آخر من روسيا ، وهذه الأرض هى هضبة « فالداى » التى يبدأ منها نهر الفولجا .

ويبدأ النهر كنبع صغير قليل الأهمية قرب قرية يقال لها : « منبع الفولجا » ، ويتحول النبع إلى مجرى مائى ضيق يجرى وسط مستنقعات وبحيرات ، وحفر جافة لبحيرات قد اختفت ، ثم يتسع المجرى تدريجيًّا وتتصل بالنهر الروافد من كلا جانبيه ، ومع مسير النهر تزداد الروافد التى تتصل به سعة وطولا ، وعند بلدة جوركى يتصل نهر الفولجا برافده « أوكا » ، ويكون عرض كل من النهرين كبيراً حتى إنه يخطر للرائى وكأن ذراعى البحر تتقاربان ، وكنهر المسيسيبى يكون عرض نهر الفولجا فى تلك النقطة ميلا واحداً ، ولكن بعد هذا للجنوب عندما يصب فيه رافده كاما Kama الذى يهبط من جبال الأورال يكون عرض النهر أكبر من الميل .

ولا شك أن عرض النهر يستثيرك ، ولكن المنظر ممل يبعث على السأم ؛ ذلك لأن المنطقة مسطحة مستوية ، ولكن فى مكان واحد فقط . . . عند

منحنى سامارا Samara يكون النهر أخاذاً ، فإن الفولجا يدور فى قوس أشبه ما يكون « بدبوس الشعر » ويقطع أخدوداً ضيقاً عميقاً فى الصخور الجيرية :

على أن النهر فيما وراء هذا ليس بنهر تكثر فيها المدهشات ، بل هو نهر يعاون على الحياة اليومية لعامة الناس فى حوضه وإلى خارج هذا الحوض ، فهو طريق يستخدمه الناس فى تنقلاتهم وفى نقل متاجرهم مما ينتجونه من حاصلات وما يحتاجون إليه من خامات ومصنوعات ، هو حلقة الاتصال بين الغابات فى الشمال ، وبين مراكز الصناعات فى الوسط ، وفى منطقة الأورال ، ثم بين حقول الغلال فى الجنوب الشرقى .

وعلى مسافة قليلة لجنوب منحنى سامارا يقترب نهر الدون إلى مسافة ٤٥ ميلا (٧٢ كيلومتراً) من نهر الفولجا حتى ليبدو لك أن الدون قد قطع كل هذه المسافة ليكون فرعاً لنهر الفولجا ، ثم غير رأيه واتجه للغرب ليصب فى بحر آزوف ، وفى الوقت نفسه ينصرف الفولجا لاتجاه آخر وينقسم إلى نهرين ، ثم يسير إلى بحر قزوين حيث ينقسم إلى مصبات كثيرة يصعب إحصاؤها . وتتكون هذه الدلتا الكبيرة من قنوات وجزر تتباين وتختلف فى الحجم والشكل .

وتنمو الدلتا وتزداد مساحتها ، فالغرين يجعل البحر ضحلا ، وعند هذا الطرف الجنوبى للنهر لا تستطيع البواخر القادمة من جنوب بحر قزوين أن تقترب من الساحل ، بل إنها تفرغ حمولتها على مسافة أربعين ميلا من مصب النهر .

ومسألة الطمى الذى يسبب ارتفاع قاع بحر قزوين مشكلة ، ولكنها ليست مبيتة كغيرها من المشكلات ، فإن الرياح الجافة الساخنة التى تهب من صحارى التركستان تغير هى الأخرى على بحر قزوين ، ويقول العلماء : إن بحر قزوين هو أكبر بحيرة مغلقة فى العالم يجف وينكمش فى سرعة مخيفة ، وفى السنوات العشر الأخيرة قل منسوب الماء عشر أقدام (ثلاثة أمتار) ، ومستوى سطح

الماء فى بحر قزوين يقل اليوم عن مستواه فى البحر الأسود خمساً وثمانين قدماً (٢٦ متراً تقريباً) وقد كان بحر قزوين يوماً ما جزءاً من البحر الأسود .

ومن حسن الحظ أن الأسماك التى تعيش فى بحر قزوين لم تشعر بعد بالتزاحم والحاجة إلى المكان الفسيح ، ومن ثم فإن مصايد الأسماك فى بحر قزوين تعتبر من أفضل مصايد العالم ، وفى البحر خمسة وسبعون نوعاً مختلفاً من الأسماك يعتبر « الحفش » Stnrgeon سيدها على الإطلاق ومن بيض هذه الأسماك يصنع الروس الكافيار الأسود الذى اشتهروا به :

والفولجا أطول أنهار أوربا ، ويمد ذراعيه لمدى كبير ، وطول كل من فرعيه الكبيرين أكثر من ألف ميل (ما يزيد قليلا على ١٦٠٠ كيلومتر) ، ومع أن الروس يعيشون فى وطن مغلق انتفعوا أيما انتفاع بنهرهم القوى ، فحفروا القنوات ، وربطوا بين الأنهار والبحيرات ، وأوصلوها كلها بالفولجا وجعلوا هذا كله شبكة ضخمة من المواصلات بين المحيط المتجمد الشمالى وبحر البلطيق ، ووصلوا بها جنوباً إلى بحر قزوين .

ومنذ سنوات طوال بنى بطرس الأكبر مدينة بطرسبرج — التى يقال لها اليوم لينينجراد — على بحر البلطيق ، فلقد أراد أن يكون لبلاده ميناء على البحار الغربية ، ومن ثم يلحق بأوربا المتقدمة . ولقد سار الروس فى خطى بطرس الأكبر واتبعوا الخطوط التى رسمها ، ولكنهم لم يغفلوا آسية ، فإن نهرهم العظيم يربطها بأوربا . وكما أن لينينجراد قد أمست ميناء على الفولجا كما هى ميناء على البلطيق . . . تقف روسيا قبالة اتجاهين : أحدهما إلى الغرب ، والثانى إلى الشرق .



١٢
حكم التتار

يقول الروس عن نهرهم العظيم : « الأم الفولجا » . ولكن لا يعنى هذا أن النهر كان نهرهم منذ القدم ، والفولجا لم يكن نهراً روسياً إلا منذ أربعمائة سنة ، وكم سكب الروس من الدمع . . وكم فقدوا من الدماء حتى استطاعت قواربهم أن تذرع النهر طليقة دون خوف .

ولو رجعنا بالتاريخ إلى ما قبل ألف عام وراقبنا القبائل السلافية شبه المتوحشة وهى تعيش فى المشارف العلوية لنهر الدنيبر ومجارى المياه التى تصب فيه ، لوجدنا أرضهم أرضاً باردة مثقلة بالغابات ، ثم هى صلبة لا يمكن حرثها . وكان الناس يصطادون السمك ليحصلوا على قوتهم ، ويتشبثون بالأنهار ، فهى الطرق الوحيدة إذا ما تحطم الثلج وذاب ، عندئذ يجازفون بالخروج بقواربهم التى صنعوها بتجويف جذوع الأشجار ، ويتاجرون بالفراء ، فراء كلب الماء Mink والدلق من اللواحم Marten والسنجاب Sqnirrel والثعالب ، وكانوا يتجرون بالملح أيضاً

وكانوا فى البداية يستبدلون تجارتهم هذه مع مستوطناتهم فى الجنوب ، فيحصلون منها على القمح والشعير والشوفان والشمع مقابل ما لديهم من فراء وملح ، ثم بدأ التجار يقومون بأعمال الكشف ، ووجدوا للشمال شبكة من الأنهار الصغيرة ، وبجرّ قواربهم لمسافة عبر المستنقعات يستطيعون الانتقال من مجرى ماء إلى مجرى ماءآخر ، ووصلوا إلى خليج فنلندة، ثم جازفوا بالاتجاه جنوباً فى الدنيبر وفى الفولجا ، وفى اتجاههم للجنوب وجدوا أنفسهم فى أرض من نوع آخر ، وجدوا مروجاً سوداء غنية فيما وراءالغابات، ثم وصلوا إلى الهضبة فوجدوا سهلاً منبسطاً فسيحاً لا أشجار فيه ، وهنا وجدوا الحشائش تمتد للجنوب لمئات الأميال ، كما تمتد للشرق إلى مسافات لا نهاية لها ، وكانت بعض هذه الحشائش بارتفاع خمس إلى ست وثمان أقدام (بين المترين والثلاثة الأمتار تقريباً) .

ورعى راكبو الخيل الرحالة جيادهم وماشيتهم وأغنامهم فى هذه الحشائش ، والرحالة يعيشون فى خيام مستديرة ينتزعونها من الأرض شتاء ، ويضعونها على عربات تجرها الثيران ، ثم يتجهون جنوباً إلى مدنهم التى يقضون فيها الشتاء ، فإذا جاء الصيف عادوا إلى أماكن إقامتهم الأولى ، وكان هؤلاء الناس هم « الخزر » Khazars ، إنهم سادة الهضبة ، وبنى الخزر مدينة عند مصب نهر الفولجا ، واعتادوا الترحيب بالتجار الذين يزورون مدنهم .

ويقول الخزر للتجار : « تستطيعون استخدام نهرنا ، وسنقوم بحمايتكم ، ولكن يجب أن تدفعوا لنا جزية ، سنأخذ فراء . . وكل رب أسرة منكم يعطينا قدراً كبيراً . . . »

ويوافق الروس ، وتذهب سفنهم عبر الفولجا إلى عاصمة الخزر ، وتسير فى الدنيبر إلى البحر الأسود . . .

وإنه مما يؤلم بلاشك أن يضطرالناس لدفع الجزية ، ولكن الروس لم يكونوا مدركين



« يعيش راكبو الخيل الرحالة فى خيام مستديرة »

كم هم سعداء بتعاملهم مع الخزر ؛ ذلك لأن السهول التى يسيطرون عليها قد شهدت شعوباً أكثر وحشية ، وسترى مزيداً منهم . وعلى مر القرون اندفعت من آسية إلى مناطق الحشائش الغنية قبائل أخرى جوالة رحل من راكبى الخيل ، وقتل هؤلاء الغزاة الناس وسلبوهم ما يملكون ، واختطفوا النساء والأطفال ، وأغاروا على المدن ، وقبعوا ينتظرون قوافل سفن التجار التى تمخر عباب النهر ، وأفقدوا طرق التجارة للجنوب ما كان لها من أمن ، حتى إن الروس هجروها تماماً وجاءت أوقات عصيبة ، فالمدن تعتمد على التجارة الخارجية ، ولكن من هو الذى يستطيع المخاطرة بركوب النهر بعد هذا ؟

وكان الزمن يخبئ من هم أسوأ ؛ فنى آسية برزت قبائل جديدة وتخير المغول لأنفسهم زعيماً كانوا يطلقون عليه اسم « جنكيز خان » وكان الاسم يعنى « القائد القوى » أو « الزعيم الجبار » ، ونظم جنكيزخان شعبه فى جيش من راكبى الخيل لم يرقب العالم له مثيلا من قبل ، وخرج جنكيزخان لغزو العالم .

واكتسح جزء من جحافله الأرض فى دورة حول بحر قزوين ، وهبط على الهضبة حيث يعيش راكبو الخيل المتوحشون الذين كانوا يثيرون المتاعب وأطلق هؤلاء العنان لخيولهم بعد معركة واحدة وعبروا الفولجا بنسائهم وأطفالهم وخيامهم وعرباتهم ، ولم يتوقفوا حتى وصلوا الدنيبر .



« وقد أجلاهم الغزاة للجنوب ، وراحوا يقتلون وينهبون حيثما اتجهوا »

وقال هؤلاء للروس : عاونونا فإن أعداء غرباء قد اغتصبوا أرضنا وغداً سيغتصبون أرضكم .

وحشد الأمراء الروس جيشاً وزحفوا للقاء التتار على ما أطلقوا على الغزاة الجدد ، ولكنهم هزموهم هزيمة منكرة ، وخلفوا فى أرض المعركة عشرة آلاف قتيل من الروس الشجعان .

وعم الذعر المدن ، وانتظر الناس ضربات التتار ، ولكن شيئاً لم يحدث ، وكما ظهر التتار فجأة اختفوا فجأة . .

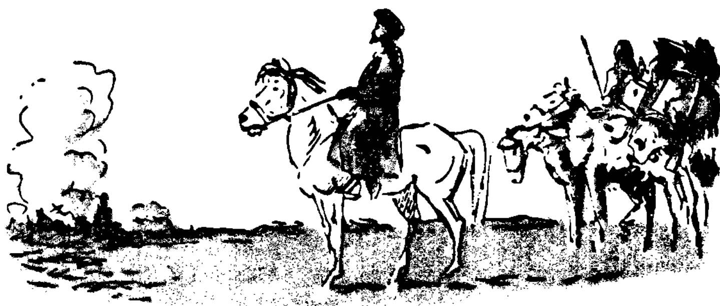
وقال الروس : إن الله وحده هو الذى يعرف من هم الغزاة ، ومن أين جاءوا ؟

ومرت ثلاث عشرة سنة، ثم عاد التتار ثانية، كان جنكيزخان قد مات ، ولكن حفيدة « باتو » قاد جيشاً لغزو الغرب ، ووصل باتو إلى الفولجا المتجمدة وتعمق فى غابات روسيا الفسيحة ، وكان يبعث برسله يسبقون جيشه .

ويقول التتار : « لو أردتم السلم فأعطونا عشر متاجركم » .

ويجيب الأمراء الروس: « لن نعطيكم شيئاً ، عندما نقتل تستطيعون أخذ كل شىء » .

وسقطت المدن الواحدة إثر الأخرى ، فمن ذا يستطيع الصمود قبالة باتوخان ؟!



« أحرق التتار الغزاة المدن الواحدة إثر الأخرى »

كانت الحرائق تشب حيثما ذهب ، وكانت عشرات الآلاف من الجثث تظل فى ميدان القتال لا توارى التراب ، وأسر التتار مئات الألوف من الروس ، أما الذين يفرون فيتجهون إلى المدن التى لا تزال بمنجاة من الغزو .

وعندما انتهت الغزوات أقام باتوخان مركز رياسته على الفولجا الأسفل ، وأطلق على مدينته المشيدة من الخيام وأحجار الطين اسم « السراى » .

ونظم « باتوخان » الأمور مع الروس فى بساطة ؛ فهم يجب أن يدفعوا له الجزية على أساس العشر ، عشر المحصول ، وعشر الماشية والخيول . وقد يمكن القول إجمالا : إن عشر كل ما ينتجون يجب أن يذهب إلى « السراى » . ثم إن الروس – بكلمة منه – يجب أن يمدوا جيشه بكل ما يطلبه من الجنود لقتال من يود قتاله ، وللأمراء أن يحكموا أرضهم المخربة بإذن منه، ولكى يحصلوا على هذا الإذن يجب أن يذهبوا إلى السراى فيركعوا أمام خيمته حتى تلامس جباههم الأرض .

ويقول الروس عندما يفدجباة الضرائب لجمع الجزية : « لقد حقت كلمة الله علينا ولكنها كانت قاسية » ، فإذ عجز رب الأسرة عن أداء ما يجب عليه أداؤه أخذ أطفاله رقيقا .

وأنّت الأجسام ، وتأوّهت الأرواح ، تحت حكم التتار . وكان الناس

أحياناً يشقون عصا الطاعة ولكن كان العقاب مخيفاً دائماً ، ولم يعرف الناس السلم والهدوء إلا عندما أطاعوا راكبي الخيل المتوحشين الذين لا يزورونهم إلا غبًّا .

ولمائتين وخمسين سنة ظلت هذه الحال قائمة ، وكان على الناس أن يحتملوها ، ولكنهم أخيراً اشتدت سواعدهم وأجمعوا أمرهم ليتخلصوا من هذه العبودية ، ولكنهم احتاجوا إلى خمس وسبعين سنة ليطردوا التتار عن الفولجا .

وفى سنة ١٥٥٢ سار القيصر إيفان الهائل المرعب بجيش عظيم إلى حصن التتار فى « كازان » التى تقوم على الفولجا الأوسط واحتلها ، وعندئذ بدأ سفك دم التتار كما سفك دم الروس من قبل ، واستعبدت نسوة وأطفال التتار ، كما استعبدت نسوة وأطفال الروس قبل سنين . وكان الانتقام مخيفاً رهيباً حتى إن القيصر لانت مشاعره بالشفقة وبكى وهو يرقب الخرائب المغطاة بالدماء .

ولكن الفرح عم روسيا ؛ فقد تحول المهزومون إلى غزاة ، وتحرر الفولجا ، كان الروس قد بقوا لقرون طويلة فى الغابات الشمالية ولاخيرة لهم فى البقاء ، ولكن عاجلاً ستكون كل الأرض لهم .

وانحدر مع النهر سيل من الفلاحين ، بعضهم يقطعون النهر فى عائمات ، وبعضهم ساروا عبر الهضبة فى قوافل من العربات ، إنهم يندفعون ليتملكوا الأرض السوداء الغنية ، التربة الخصبة لعمق خمس أقدام. وسينتجون أحسن المحصولات دون مخصبات ، واندفع فيضان الناس جنوباً إلى نهاية الهضبة الخضراء . إنها أقصى ما يمكن أن يقصده الفلاحون ؛ ذلك لأنه عند مصب نهر الفولجا كان للتتار حصن قوى فى « استراخان » .

ومن المنبع إلى المصب يجرى الفولجا فى أرض روسية ، وأخيراً كان الفولجا فى كل مجراه نهراً روسيًّا .



١٣
مسيسبي روسيا

ربما تكون قد رأيت صورة كتب أسفلها : « رجال القوارب فى الفولجا » ، إنها تعرض جماعة من الرجال فى أسمال بالية يسيرون الهوينا على شاطئ النهر يجرون سفينة كبيرة مسطحة القاع فى نفس الطابع الذى يجر فيه الصينيون سفنهم في نهر يانجتسى . إن الصورة قديمة ولا شك ، لقد كان سمائة ألف من هؤلاء الرجال فى روسيا فى عهد القياصرة ، ولكن سفن الجر خلصت اليوم من هذا العناء ، والفولجا اليوم نهر حديث إلى غاية ما للكلمة من معنى ، إنه مسيسبي الاتحاد السوفييتى .

وتضىء المجرى منارات قوية ، وتصدر النشرات من يوم إلى آخر لتدل قباطنة السفن على الأماكن الضحلة القريبة الغور ، وتعمل السفن الكاسحة للغرين فى كل مكان لإزالة الطين ، ولإبقاء القاع على طوع المجرى حتى بحر قزوين بعمق اثنتى عشرة قدماً ، وأحواض السفن وأرصفة الموانى من أحدث طراز مع آلات حديثة للشحن والتفريغ ، ووسط أحدث نماذج السفن من

البواخر والسيارات وناقلات البترول والصنادل Lighter والزوارق التى يعبر بها الناس النهر من شاطئ إلى الآخر (المعديات) ووسط المثلجات العائمة وسفن مكافحة الحريق ، وسط هذا كله تجىء مع التيار عائمات ضخمة تجرها سفن الجر ، والعادة أن تكون العائمة بطول أربعمائة متر وعرض مائتين وسبعين متراً ، ولكن لا تحمل هذه العائمات شيئاً .

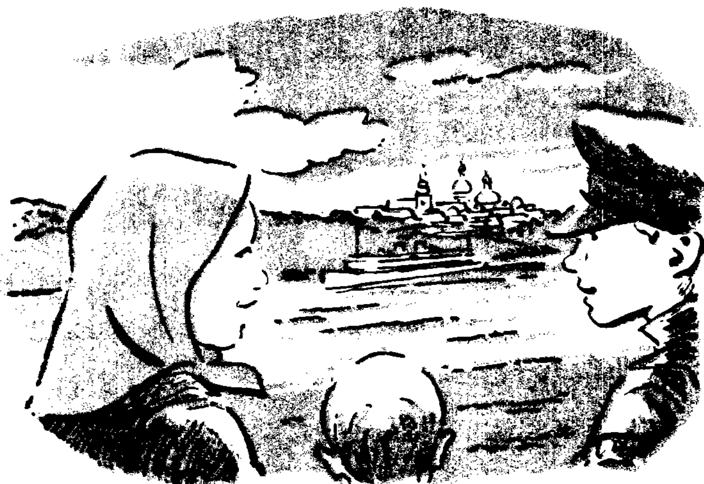
وتسأل نفسك فى دهشة : « ما معنى هذا ؟ »

معناه أنه لا توجد فى الجنوب غابات ؛ فالجنوب أرض معدومة الأشجار ، ولكن الخشب تحتاج إليه كل حرفة وكل صناعة ، يحتاجون إليه لبناء المنازل ، للدروع الخطوط الحديدية ، لسنادات الحفر فى المناجم ، لأرضيات الآلات فى المصانع ، وهكذا ترسل العائمات من الشمال مع التيار إلى الجنوب ، مجرد جذوع أشجار ضخمة مربوطة بعضها إلى بعض كى تشكل هناك تبعاً لاحتياجات العمل .

والخشب والبضائع المصنوعة هى كل ما يرسل مع التيار نحو الجنوب ، على حين تنتقل للشمال مختلف أصناف البضائع . وتبدأ الحركة النشيطة على النهر عندما يستيقظ النهر المتجمد من نومه الذى يمتد لأربعة أو خمسة أشهر ، وتبدأ الحركة ؛ فالناقلات تحمل البترول ، « والصنادل » تحمل المعادن والفحم ، وينقل القمح من المزارع الجماعية الفسيحة على طول نهر الفولجا ، وينقل شمالا الملح من الصحراوات المالحة قرب بحر قزوين ، وينقل الأسمنت كذلك للشمال ، والسمك الذى يصطادونه فى الفولجا وفى بحر قزوين ، والغراء والكتان والدقيق والآلات كلها تنقل فى النهر نحو أطرافه العليا فى الشمال ؟

وفى الاتحاد السوفييتى « مائة ألف نهر ، ولكن يمر بالفولجا وفروعه ثلثا المتاجر التى تنقلها السفن فى أنهار روسيا ، وبالإضافة إلى هذا فإن آلاف البواخر التى تمر عبر الفولجا تنقل الركاب ؛ بعضهم يقصدون الرحلة للعمل ، وبعضهم يقصدونها للمتعة والسرور .

والحكومة تشجع الناس على القيام برحلات عبر الفولجا ، إنها تريدهم أن يروا



« آلاف السفن البخارية تحمل الركاب عبر نهر الفولجا »

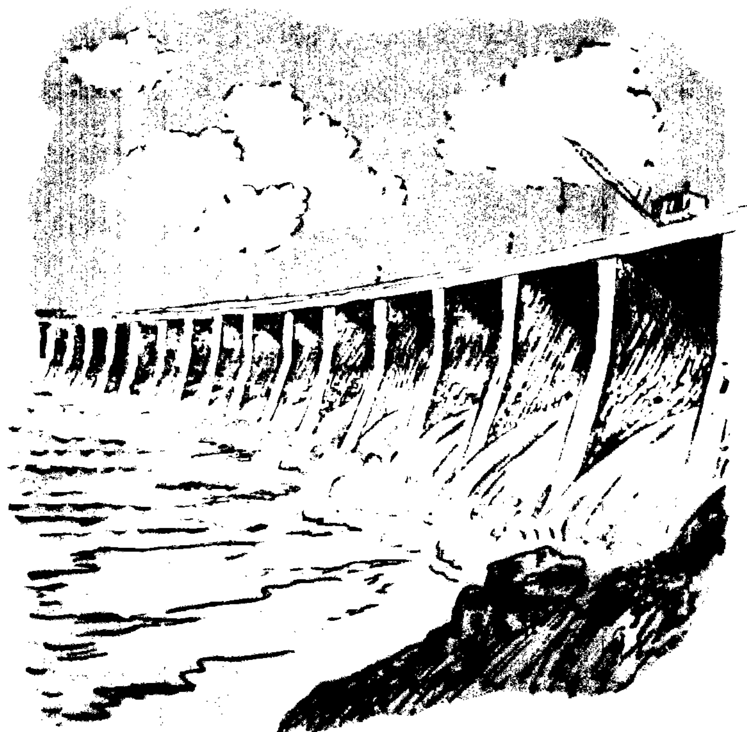
التقدم الذى حققته البلاد فى السنوات الأخيرة ، وفى إقليم الفولجا تقوم نصف صناعات الاتحاد السوفييتى ، وعلى النهر نفسه الكثير من المراكز الهامة ، فكازان تنتج الآلات الكاتبة وأفلام السينما ، « وجوركى » هى « ديترويت » الاتحاد السوفييتى ، تصنع العربات وسيارات النقل ، وستالينجراد التى أمكن عندها وقف القتال ثم رد الجيش الألمانى على أعقابه فى الحرب العالمية الثانية تصنع الجرارات ؟ وفى استراخان تصنع العلب المليئة بالسمك المحفوظ ، وهناك صناعات الفراء والمعادن والمصنوعات الجلدية ، وعلى النهر آلاف الأحواض لبناء السفن ؟

وتوصى الحكومة الناس بأن يقضوا عطلاتهم على الفولجا ، وتقول لهم : « شاهدوا مشروعات الفولجا العظيمة » ؟

وكل فرد يريد أن يرقب هذا ؛ ذلك لأن إعادة إنشاء الفولجا بإقامة الخزانات ومحطات القوى الكهربية وشق القنوات كانت محور كل المشروعات الروسية ، وكان الناس فى كل أرض روسيا يتحدثون عن هذا لسنوات ؟

وتقع موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتى على نهر مسكفا أحد فروع الأوكا الذى هو بدوره أحد فروع الفولجا : وعندما شقت القناة التى جاءت بالفولجا إلى موسكو كان هذا عيداً احتفل به الناس ، ولكن فى سنة ١٩٥٢ عندما افتتحت قناة الفولجا ـ الدون ، كانت فرحة الناس قد بلغت الذروة ، وكان كل فرد يكرر مزهوًّا : « إن موسكو الآن ميناء الأنهار الخمسة » .

وتحقق الحلم العظيم ، ولم يأسف فرد للعمل العظيم المضنى الذى مكن من إيصال البحر الأبيض فى الشمال ببحر البلطيق، وبحر قزوين ، والبحر الأسود ، وبحر آزوف ، وفى روسيا الآن أكثر من ثلاثين ألف كيلومتر من طرق الملاحة الداخلية : وأشارت الصحف فى زهو وإعجاب إلى كل ما حقق — غير



« شيدت على الفولجا الخزانات العظيمة ومحطات القوى الكهربية »

هذا ـ من مشروع الفولجا العظيم ؛ لقد كان النهر فى الكثير من نقاطه ضحلا حتى كان من الممكن خوضه ، ولكن الخزانات قد زادت من ارتفاع المياه فى تلك المناطق ، ومن ثم تستطيع السفن السير حيثما أرادت ، وعلى الفولجا اثنتا عشرة محطة للقوى الكهربية ، وأربع وثلاثون محطة على فروع النهر ، وعند منحنى سامارا توجد أكبر محطة للقوى الكهربية فى العالم كله .

ويقول الروس : « سنحصل فوراً على كهرباء رخيصة نستخدمها فى كل شىء ، فالكهرباء سترفع المياه من الفولجا لنروى حقولنا ،وستتغلب على الجفاف الذى كثيراً ما أتلف محصولاتنا الزراعية » .

ويشعر الروس عندما يمرون فى قنواتهم الحديثة بالفخر الذى يشعر به الأمريكى وهو يمر بقناة بنما ، والعربى عندما يمر بقناة السويس . من الفخر تحسين ما جاءت به الطبيعة ، والإنسان الصغير الواهن يبدو عملاقاً عندما يستطيع تغيير الطابع الجغرافى لبلده .



١٤

أبو المياه

يبدو نهر المسيسبى على الخريطة كشجرة هائلة ؛ إذ تصل أطرافه العليا إلى كندا وتمتد جذوره فى خليج المكسيك ، وتمتد أطراف فروعه الجانبية من جبال الأبالشيان[١] حتى جبال روكى[٢] ، ويقول الأمريكان عن المسيسبى : « شبكة أنهار المسيسبى » ، وهو أعظم ما يفخرون بتملكه من الأرض .

وتقوم هذه الشبكة من الأنهار بتصريف مياهها فى خمس مساحة الولايات المتحدة ، وتغطى كل أو أجزاء إحدى وثلاثين ولاية ، ثم تمد الولايات المتحدة بأكثر من خمسة عشر ألف ميل (نحو ٢٥,٠٠٠ كيلومتر) من خطوط النقل المائى ، فهى تسير بهم إلى البحر الفسيح ، ويقطع النهر وادياً ليس هناك واد يفضله ، ولا تصل شبكة مياه نهرية إلى حد الكمال ، ولكن وادى المسيسبى يبدو

---

(١) Appalachians جبال تمتد من جنوب كويبك إلى الشمال ألباما بطول ١٥٠٠ ميل ، أعلى قنتها جبل ميتشيل فى كارولينا الشمالية بارتفاع ٦٧١١ قدماً (معجم ويبستر طبع ١٩٥٦ ص ٦٩ — المترجم) .

(٢) Rockies سلسلة جبال فى غرب أمريكا الشمالية تمتد من نيومكسيكو إلى آلاسكا ، وأعلى قنتها جبل مكينلى فى آلاسكا بارتفاع ٢٠٣٠٠ قدم (معجم ويبستر طبع ١٩٥٦ ص ١٢١١ — المترجم) .

كندا
سانت بول
شيكاغو
هانيبال
سانت لويس
نهر الميسورى
كايرو
نهر أوهيو
نهر المسيسبى
ناتشز
نيوأورليان
المسيسبى
المكسيك

وكأنه أفضل واد فى العالم ليعيش فيه الإنسان المتحضر .

ولوقت طويل كان النهر هو الذى يحدد الولايات المتحدة من الغرب ، ولكن فى سنة ١٨٠٣ عندما اشترت الولايات المتحدة من فرنسا الأرض الواسعة بين المسيسيبى وجبال روكى ، صار النهر كله ملكاً للولايات المتحدة ، ولكن فى ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف – ولا حتى « اتشيبوا » [1] أين تقع منابع النهر الذى أطلق عليه السكان الأصليون الاسم « مي – زى – سى – بى » . أى « أبو المياه » ، وحاول المستكشفون الواحد إثر الآخر أن يجدوا أين يبدأ النهر ، وأخيراً فى سنة ١٨٣٢ وصل هنرى سكولكرافت إلى قرابة منبعه فى أقصى أطراف ولاية مينيسوتا ، كان بحيرة أطلق عليها الاسم « أتاسكا » .

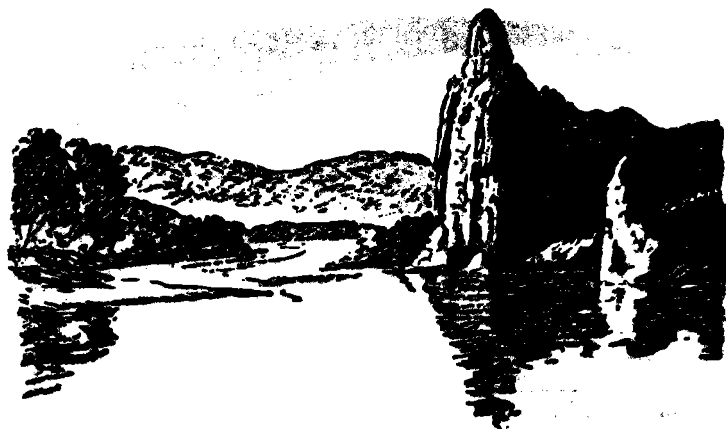
ولكن الواقع أن المسيسيبى ينبع لشمالها بخمسة أميال فى بحيرة صغيرة اسمها « ليتل ألك » :

ويبدأ النهر فى شكل مضحك ، مجرد خور صغير بعمق أربع بوصات (١٠ سنتيمترات) ، مجرى ضيق يستطيع أى فرد اجتيازه بوثبة واحدة ، ويسير النهر فى بدايته للشمال ، ثم يتجه إلى الشرق عبر البحيرات والمساقط وكأنه يتجه نحو بحيرة سوبيريور (أكبر البحيرات العظمى بين ميتشيجان وأونتاريو بكندا) وتبلغ مساحتها ٣١٨١٠ أميال مربعة ، ثم يدور فى قوس واسعة كبيرة ليمر فى مساقط سانت أنتونى عبر منيبوليس وسانت بول (راجع الخريطة) :

وكانت الأرض حتى هذا القدر من مجرى النهر موحشة غالباً ، ولكن لا تلبث أن تتغير الصورة العامة ، وتبدأ منطقة البرارى الخصيبة التى لا نهاية لها والتى تصل إلى مساحة فرنسا ، وعلى طول النهر مرتفعات وعرة تعلوها مدن تنشط فيها الحركة ، وتبرز وسط النهر الواسع الجزيرة إثر الأخرى ، وبين

---

(١) Chippewas هم أفراد قبيلة الجوتكوبان الهندية ويعيشون فى المنطقة بين غرب بحيرة إيرى



« يدور الميسورى فى داكوتا الجنوبية وسط جبال وعرة »

سانت بول ومصب الميسورى يوجد ما يزيد على خمسمائة جزيرة ، وقد كثر عدد هذه الجزر حتى لم يجد الناس أسماء يطلقونها عليها فأطلقوا على بعضها أرقاماً للتعريف بها .

وتصب فى المسيسبى فروع قوية لاثنين منها مكانة بارزة : أحدهما نهر وحشى أصفر يقال له « الميسورى » وهو أطول من المسيسبى الذى يلتقى به فوق سانت لويس ، وتستطيع — لو أردت — أن تعتبر الميسورى والمسيسبى الأسفل نهراً واحداً كما يفعل بعض الناس ، ولو رضيت بهذا كان المسيسبى ثانى أنهار العالم طولا بعد نهر النيل ، والفرع الثانى هو : أوهيو، النهر الجميل، ويجىء من نهر أوهيو ثلث المياه التى يأتى بها المسيسبى فى خليج المكسيك .

والمسيسبى كبير السعة عند اتصال نهر أوهيو به ، فتصل سعته إلى الميل فى المد العالى ، ويظل كذلك طوال النصف الباقى من مجراه إلى البحر ، ثم يحدث شىء غريب ، فبدلا من أن يتسع مجرى النهر كما يحدث فى كل الأنهار فان مجرى المسيسبى يضيق

وللنهر كذلك مظاهره الغريبة الأخرى ، فمن مدينة كايرو بولاية إلينوى عند مصب الأوهيو يدور النهر فى عدة أقواس والتواءات التواء إثر الآخر ، وكان صمويل كليمنس Samuel Clemens الذى نعرفه باسم « مارك توين » والذى كتب كتابيه Tom Sawyer, Hnckleberry Finn كان قائد سفينة بخارية فى المسيسبى أيام شبابه ، وكان يعرف كل منحنى فى النهر وكل حاجز رملى ، وكل عائق على النهر ، وكل أرض للرسو ، ويصف الصورة العامة للنهر فى قوله :

« لو وضعت على كتفيك قشرة طويلة لينة من قشور شجر التفاح ، فإنها تتشكل فى الصورة التى يتشكل فيها مجرى النهر لمسافة من تسعمائة إلى ألف ميل بين كايرو بولاية إلينوى وما إلى جنوبها حتى نيو أورليانز ، مجرى يتلوى التواءات عجيبة مع مسافات قصيرة مستقيمة هنا وهناك على فواصل طويلة » .

ويقول توين عن هذه الالتواءات التى تشبه « حدوة » الفرس : « إنك لو تركت السفينة فى أحد طرفى هذا الانحناء وسرت عبر الأرض التى فى الطرف الآخر على مسافة لا تزيد على نصف أو ثلاثة أرباع الميل ، لاستطعت أن تجلس على الساحل للراحة لساعتين حتى تدور السفينة فى هذا الانحناء الكبير بسرعة عشرة أميال فى الساعة، وبعد هذا تصل السفينة لتنقلك إلى ظهرها ثانية » .

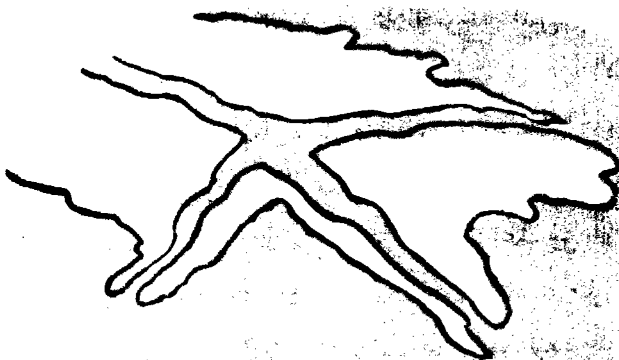
ويحاول المسيسبى دائماً أن يجعل مسيره مستقيما ، ففى أكثر من مرة يشق النهر طريقاً عند عنق « حدوة » الفرس ليدخر خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلا فى وثبة واحدة ، فإذا حدث هذا كانت مشكلة مجهدة لمدينة على النهر ؛ ذلك لأنها تنقطع عنه ، وكثير من المدن التى كانت على النهر تبعد عنه اليوم بميلين للداخل تسد طريقها إليه الجسور الرملية والغابات .

على أن النهر – بالإضافة إلى اقتطاعه لأجزاء من مجراه وتحويلها إلى بحيرات فى شكل الأهلة (هلالية الشكل) – فإن النهر قد اعتاد شيئاً آخر ، اعتاد التحرك إلى جانب ؛ فالجزر تتحول إلى أشباه جزر ، وأشباه الجزر تنقلب إلى

جزر ، وقطعة من الأرض قد تكون فى ولاية لويزيانا ، فإذا جاء الغد فقد تكون فى ولاية المسيسبى .

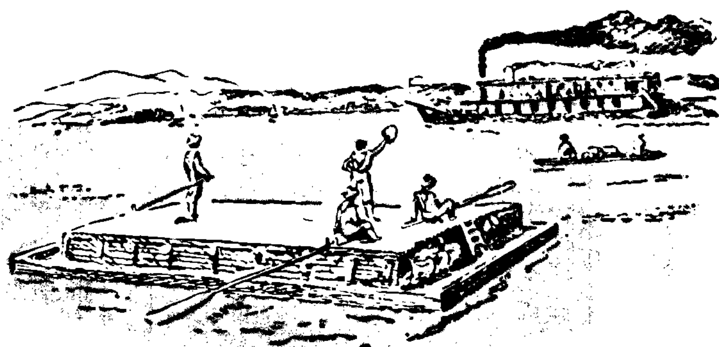
وبذلك نكون قد وصلنا إلى أرض القطن ، وقد اقتربنا من خاتمة المطاف للنهر . ويحمل المسيسبى كميات كبيرة جداً من الغرين ، ولهذا فليس مما يثير الدهشة أن النهر قد أقام أكبر دلتا فى العالم ولا يزال النهر يدفع هذه الدلتا للأمام يوماً بعد يوم فى خليج المكسيك ، فإنها تمتد لمائتين وخمسين قدماً إلى الأمام فى كل عام ، والسهل الطينى الكثير الخصوبة أشبه بقدم أوزة كبيرة الحجم ، ووسط هذه القدم الكبيرة يصب النهر . وينقسم المسيسبى إلى ستة فروع أساسية رئيسية ، أو ممرات على ما يقال لها ، فكل من هذه الممرات يمتد إلى مدى بعيد فى الماء ، وكل منها قد كون دلتاه أمامه .

هذا هو النهر من منبعه إلى مصبه ، وهذا هو جذع الشجرة الضخمة المهولة . . . .



« خليج المكسيك »

« تشبه دلتا المسيسبى قدم أوزة كبيرة هائلة »



١٥

السفينة قادمة

لو شاهدنا المسيسبى بمجراه الفسيح الواسع عندما صار نهراً أمريكيـًّا لأول مرة لوجدناه نهراً عظيماً له جلاله ، ولكنه يجرى فى وحدة مؤلمة ، فالقوارب المسلحة والكيلبوت Keelboats [1] تحمل بضائع بسيطة كتلك التى كان يبيعها الرواد الأولون ، فراء ، وقمحاً ، ودهن الدببة ، ولحم الغزال ، وشحماً ، ولحم الخنزير ، ولكن لا حركة للشمال نحو منابع النهر فالرحلة مجهدة ، ثم إن الرجال ينقلون متاجرهم إلى الأرض فى جنوب النهر ؛ ثم يعودون إلى الشمال سائرين على أقدامهم .

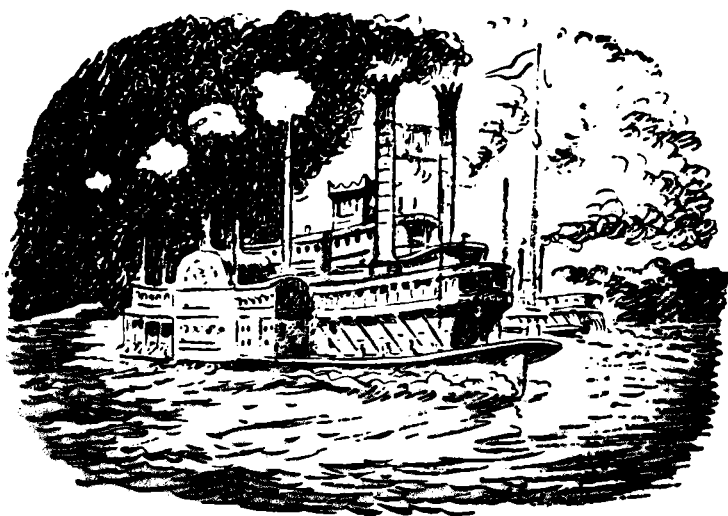
ولكن فى سنة ١٨٠٧ جاء إلى النهر جديد . . . حادث لم يحدث من قبل ؛ فقد قام روبرت فولتون بسفينته البخارية برحلة فى نهر هدسون ، فكانت تجربة للملاحة فى مجارى المياه ، وبعد أربع سنوات بدأت القوارب البخارية سيرها فى نهر المسيسبى وفى تاريخ لاحق كانت القوارب البخارية تذرع النهر جيئة وذهاباً ، وتحول النهر فجأة إلى النضج والاكتمال .

(١) الكيلبوت ضرب من السفن الأمريكية .

ومرت ثلاثون سنة ، وبدأت السفن البخارية تقوم برحلات كثيرة ، كان هذا هو « وقت الفيض » بالنسبة لها قبل أن تجيء الخطوط الحديدية لتختطف منها هذا العمل ، ومع هذا بقيت للسفن البخارية مكانتها عند الناس على طول النهر ، يتحدث عنها سام كليمنس Sam Clemens من بلدة هانيبال فى ميسورى عند أعالى النهر ، يتحدث عنها وكأنه يراها بعينيه وهو ما زال صبياً فى فجر العمر ، ويقص علينا أن حادثتين كانتا لا تغيبان عن أى شخص فى المدينة : أولاهما عندما تصلها السفينة البخارية القادمة من سانت لويس متجهة شمالا ، والثانية عندما تجيء السفينة المتجهة جنوباً من كيكوك فى إلينوى .

وتهجع هانيبال فى شمس الصيف ويطوى المسيسبى العظيم الرائع ، يطوى المد الذى يصل لسعة ميل واحد، ولكن أحداً لا ينصت لصوت الارتطام الهادئ ، ارتطام أمواج النهر « بالرصيف » الحجرى ، وفجأة يصيح زنجى ممن يعملون فى الميناء النهرى : « السفينة تقترب » ، وتستيقظ المدينة الهاجعة من حر الصيف ، ويسرع الرجال والصبيان والعربات إلى الرصيف الحجرى ويتجمع الكل ، ويثبت الناس أعينهم على السفينة القادمة وكأنهم يرون شيئاً عجيباً ، فهى فى الحقيقة جميلة الرواء ، طويلة ، منسقة ، حادة الأطراف مع مدخنتين طويلتين بينهما رباط ذهبى اللون gilded device ، وقد شيدت غرفة القيادة من الزجاج ، وزين غلاف البدال بالصور والرسوم ، وأحيط ظهر السفينة بقضبان بيضاء نظيفة ، وتزاحم الركاب وراء القضبان ، وقد نفثت المداخن من أفواهها بسحابات كثيفة سوداء من الدخان .

وعم الهدوء ظهر السفينة ، ووقف القبطان فى جوار الناقوس الكبير ، ومدت مرساة النزول للخارج لمسافة طويلة فوق رصيف الميناء ، حيث يقف أحد الملاحين الذين يعملون على ظهر السفينة وقد أمسك بيده لفة من الحبال ، ويندفع البخار من الصنابير مصفراً ، ويرفع القبطان يده ويدق الناقوس ويتوقف الصفير ، وتزحف جموع للصعود إلى ظهر السفينة ، على حين تزحف



« تنفث مداخن السفينة البخارية القديمة بالدخان الأسود من أفواهها »

جموع أخرى للنزول إلى الشاطئ ، ولتفريغ الأحمال ولشحن غيرها » ، كل هذا يحدث فى وقت واحد ، وبعد عشر دقائق تعود السفينة سيرتها الأولى ماخرة عباب النهر ، وبعد عشر دقائق أخرى تغيب المدينة عن أعين أولئك الذين يركبون النهر .

ويفكر سام كليمنس الصغير ، الرجل الذى سيكون كاتباً فى مستقبل حياته ، يفكر كم هو جميل أن يكون « نادلا » على تلك السفينة ، وأن يخرج إلى ظهرها متدثراً فى ميدعة بيضاء لينفض أغطية المنضدة ليراه رفاقه القدامى، ولكن الأفضل أن يكون ملاحاً على ظهر السفينة فيمسك فى يده لفة الحبال ؛ بل الأفضل من كل هذا أن يكون هو الذى يتولى إرشاد السفينة وقيادتها :

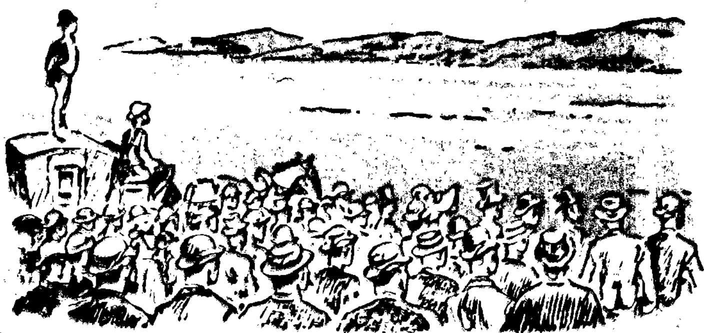
ولكن السفينة التى تثير مدينة هانيبال مرتين كل يوم ليست أكثر من سفينة صغيرة ولا يمكن أن تقارن بالسفن التجارية ذات الطابع النموذجى الأنيق ؛ فبعض هذه أشبه ما تكون بقصور عائمة فيها غرف لمائتى مسافر ، فيها سرر

مفروشة ، وطنافس غالية ، ومرايا كبيرة ، وأثاث فاخر ، تغطى أبواب غرفها الرسوم ، وتعزف فى بهوها الموسيقى النحاسية ، وصحاف مائدتها جميلة كتلك التى فى الفنادق الكبيرة ، والطعام أجود بكثير ، ولوجبات الطعام التى تقدم للمسافرين فى السفن البخارية الكبيرة شهرتها فى كل البلاد .

والرحلة فى المسيسبى رحلة جميلة لو سافرت فى غرفة خاصة « كابين» ، فكثيرون ممن يسافرون من سانت لويس للشمال على النهر لا يقطعون الرحلة فى غرف إذ لا يتوافر لهم المال للمتعة ،إنهم أمريكيو المستقبل جاءوا إلى المسيسبى من ألمانيا ، وأيرلندة ، والنرويج ، والسويد ، وتشيكوسلوفاكيا . إنهم رواد يبحثون عن وطن فى برية استصلحت حديثاً فيما وراء النهر ، إنهم يتزاحمون فوق السطح الأوسط للسفينة الحقيرة يأكلون ما حملوه معهم من غذاء ، ويفرشون على الأرض فى ساعات الليل فرشهم ، وتنزلهم السفينة فى نقاط على أعالى النهر حيث تبدأ الطرق إلى الغرب غير المستثمر .

والعمل كثير . . . فإن السفن البخارية تنقل – بالإضافة إلى الناس – منتجات نصف القارة إلى الأسواق ؛ ذلك لأنه لا توجد بعد الخطوط الحديدية التى يجب أن تنقلها للغرب ، وحتى عندما تتم هذه الخطوط الحديدية لن يكون هناك الخط الحديدى الذى يسير موازياً للنهر ، ومن ثم فإن كل حركة النقل للشمال أو للجنوب على النهر ستظل من نصيب السفن وحدها . ولكن لما كانت للسرعة أهميتها فستحاول السفن أن تقلل الوقت ما أمكن ، إنها تتسابق دائماً وحتى إلى ما وراء المسيسبى بكثير يعنى الناس بهذا السباق كما يعنون اليوم بكل ألوان السباق العالمية :

وفى يونيو سنة ١٨٧٠ اتجهت أنظار العالم المتحضر إلى المسيسبى حيث تتسابق السفينتان « ناتشز » و « روبرت لى » فى رحلة على النهر بين مدينتى نيو أورليانز وسانت لويس ، وكان حديث الناس أن « ناتشز » أسرع السفينتين وأنه لا فرصة للسبق أمام السفينة : لى » ، ومع هذا تراهن الناس بالكثير حتى



راقبت جماهير غفيرة من الناس السباق بين السفينتين « لى » و « ناتشز »

بلغت جملة الرهان أكثر من مليون دولار .

وعنى القبطان كانون ، قبطان السفينة « لى » بالسباق ، وتأهب له ، فانتزع من سفينته كل ما يمكن أن يزيد ثقلها حتى إنه أزال كل الأجزاء العلوية التى يمكن أن تعطل من اندفاع السفينة عند احتكاكها بالهواء، وتفق مع متاجر الفحم أن تنتظره قوارب مسطحة فى نقاط معينة لتزوده بالوقود فى وسط النهر حتى لايفقد وقتاً فى التزود بالوقود؛ إذ تربط هذه القوارب إلى السفينة « لى » أثناء سيرها ، وهكذا تتابع السير فى أثناء تزودها بالوقود ، ورفض القبطان كانون أن ينقل مسافرين أو أحمالا فى رحلة السباق هذه .

أما القبطان ليثرز قبطان السفينة « ناتشز » فقد حالت ثقته بسفينته دون قيامه بأى استعدادات خاصة للسباق ، كان يعرف أنه سيسبق السفينة « لى » فى المائة الميل الأولى ثم يتركها خلفه فلا يستطيع اللحاق به بعد ذلك بحال ما .

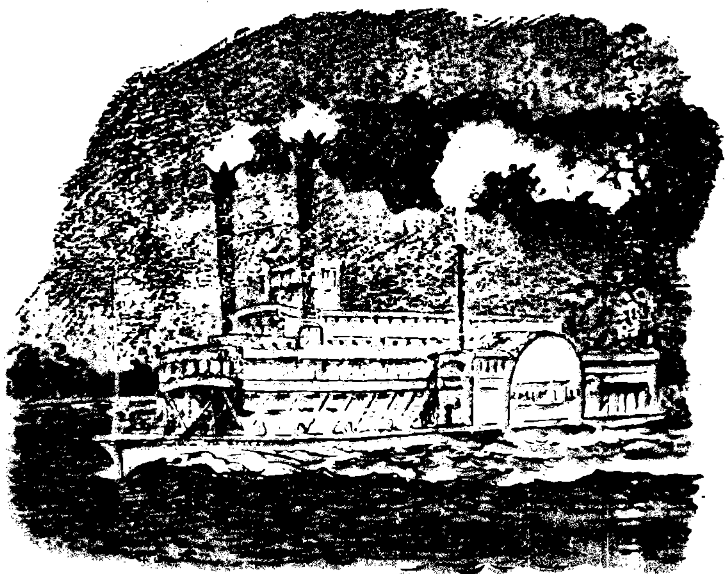
ومنذ تحدد موعد السباق كان كل وادى المسيسبى مأخوذاً معنيًّا ، بالسباق ، ولأسابيع طوال لم يتحدث إنسان إلا عنه ، وعندما جاء مساء اليوم المشهود احتشد الناس على الشاطئ وتزاحمت الجسور وأسطح الدور والسفن



« ضربت السفينة « روبرت لى » الرقم القياسى وسبقت السفينة ناتشز »

بالناس ، ووجهت الأعين إلى السفينتين المتنافستين اللتين كانت مداخنهما تطلق سحابات الدخان تتلوى وتتطاير فتظلم الجو وانطلق عمودان من البخار بصفير عال ، وعزفت الموسيقى « عاشت كولومبيا » وأطلقت المدافع ، وفى الخامسة أبحرت « روبرت لى » وسط عاصفة من التصفيق والهتاف ، وبعد خمس دقائق من إبحارها أبحرت السفينة « ناتشز » وسط عاصفة مماثلة .

واهتزت أسلاك البرق تحمل أنباء تقدم السفينتين ، وازدادت حماسة الجماهير ، وتجمع الناس على الشاطئ عند كل قرية وفى ناتشز ، وفيكسبرج وهيلينا وغيرها من المدن والبلاد جاءوا من مسافة أميال من شاطئ النهر لتحية السفينتين ، وفى ممفيس تجمع عشرة آلاف لمشاهدة السباق ، ومكنت الصحف الناس فى كل البلاد الأمريكية من متابعة السباق ، كانت تضع على واجهاتها ملصقات توضح سير السباق ، وبقيت آلات البرق تعمل باستمرار ، وكلما مرت إحدى السفينتين بمدينة ممفيس ، فيكسبرج ، وكايرو ، نقل البرق



« قطعت المسافة من نيو أورليانز إلى سانت لويس فى ثلاثة أيام وثمانى عشرة ساعة »

الوقت الذى مرت فيه إلى أوربا ، فقد كانت لندن وباريس معنيتين بالسباق اهتمام نيويورك وشيكاغو به .

وبلغت « روبرت لى» هدفها بعد ثلاثة أيام وثمانى عشرة ساعة وأربع عشرة دقيقة من وقت إبحارها من نيو أورليانز ، وبذلك ضربت الرقم القياسى ، كما سبقت السفينة « ناتشز » ، وتجمع ثلاثون ألفاً على « رصيف » الميناء فى سانت لويس ، وفى نوافذ دورها وعلى أسطح هذه الدور للترحيب بالسفينة التى تكسب السباق .

وأقام رجال الأعمال فى سانت لويس مأدبة للقبطان ، وبلغ التحمس على المسيسيبى ذروته ، وتعطلت الأعمال ؛ فقد انصرف الناس إلى الحديث ، وبقى الناس يقولون : « إن السفينة « ناتشز » هى الأسرع ولكن القبطان كانون قبطان السفينة « روبرت لى » قد بز القبطان « ليثرز » ولا شك » .



١٦
كفاح الرجال ضد الغابة

« الخشب . . . »

رفع الأفراد الذين يكونون فريق (طاقم) قطع الأشجار أعينهم لينظروا إلى الشجرة العملاقة وهى تهوى إلى الأرض ، كانت شجرة بيضاء من أشجار الصنوبر ، شجرة من الصفوة الممتازة بين أشجار غابات ويسكونسين ،شجرة طويلة مستقيمة كالصارى تغطى الأغصان طرفها العلوى فقط :

ولكن هناك الكثير مثلها فى الغابة ، ملايين من الأشجار فى هذه الغابة ، من الصنوبر . والتنوب والطمراق Tamarack (شجر أمريكى) وتمتد كلها لمئات الأميال للشرق والغرب والشمال على طول الطريق إلى كندا ، ويرى الحطابون الذين يعملون فى هذه الغابة أنفسهم أقزاماً بالنسبة للأشجار الضخمة من حولهم وبالنسبة لمساحة الغابة التى لا تصل أعينهم إلى نهاية مداها :

ولكن هؤلاء ليسوا أول الذين جاءوا لقطع أشجار الصنوبر الأبيض من ويسكونسين ؛ فقد بدأ قطع الأشجار منذ سنوات طوال عندما بنى المستوطنون منازل أسرهم عند أطراف الغابة ، كانت فؤوس « بلط» المستوطنين أول ما مزق



« جرى الحطابون عندما سقطت شجرة الصنوبر العملاقة البيضاء على الأرض »

سكون وصمت هذه الغابات ، لقد قطع المستوطنون الأشجار التى يريدونها وجروا الكتل الكبيرة إلى المناشر القريبة ، وقطعت مصانع نشر الخشب كل ما جاء به الرجال من جذوع الأشجار الكبيرة ، ولكن هذا لم يكن كافياً، فعلى طول المسيسيبى ، كانت المدن تثب إلى الوجود ، وكان الناس يتوقون لبناء منازلهم بالصنوبر الأبيض ، الصنوبر الذى يجىء من ويسكونسين ، ومن ثم تعمق الحطابون لداخل الغابة :

وكان الحطابون الذين أسقطوا تلك الشجرة التى حدثتك بقطعها قبل سطور فريقاً (طاقم) من فرق(أطقم) قطع الأشجار، إنهم فى جملتهم اثنا عشر رجلا من النرويج والسويد وفنلندة ، كانوا يعملون لثلاث عشرة ساعة فى اليوم وفى درجة حرارة تحت الصفر ، إنهم يقطعون أشجار الصنوبر الأبيض وينشرونها ولكنهم لا ينقلونها إلى المنشر ، فإن النهر يقوم بدور الحمل والنقل، إنهم يجمعون الكتل على شاطئ النهر حيث تبقى فى انتظار باكورة مياه الفيضان فى الربيع فتدفع الكتل الضخمة مع مجرى النهر .

إن الحياة فى غابات الصنوبر الموحشة صعبة قاسية ، ولا يمكن أن تظن مناطق قطع الأخشاب مكاناً صالحاً لإقامة البشر ؛ فالغذاء فى الأغلب من الخبز والبقول فقط ، ولكن هؤلاء الحطابين صلبو العود يحتملون المتاعب ، إنهم يفخرون بأنفسهم وبطاقتهم على احتمال الشدائد .

ومن الفجر إلى الغسق يقطع الحطابون الأشجار ويجرونها وينشرونها ، ولهذا فإنهم لا يتجولون بعيداً عن أطراف الغابة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقطعوا من الصنوبر الأبيض ما تحتاج إليه حركة البناء فى المدن التى تنمو وتتسع ، ومن ثم احتاجوا إلى المزيد من الأيدى العاملة ، فرق (أطقم) جديدة من الحطابين ، وجاءت جماعات من خمسين ومن ثمانين ومن مائة حطاب ، وجاء الرجال ليعملوا معاً فى قطع أشجار الصنوبر ، وشق هؤلاء الطرق فى قلب الغابة ، وكانوا يرشون الطرق بالمياه لتتجمد فى فصل الشتاء ، وتجر هذه الكتل الضخمة بالجياد ، أزواج من الخيول . . زوجان أو أربعة أو ثمانية أزواج من الخيول تجر أهرامات من الكتل الخشبية على زلاقات تجرى فوق الطريق المغطى بالثلج ، ويوماً بعد يوم يزداد تعمق جيش حاملى البلط لداخل الغابة .

وكان الحطابون الجدد أحسن حالا ممن سبقوهم ، كان هؤلاء يعيشون فى رغد من العيش ، لقد زالت هذه الأكواخ المظلمة التى كان على الحطابين أن يعيشوا فيها مستسلمين ، والتى تمر الرياح العنيفة عبر ما فيها من صدوع وشدوخ محدثة صوت صفير موحش ، إن معسكرات الحطابين اليوم أكواخ قوية البناء دافئة مضاءة لها نوافذ ، وينام الحطابون على منامات مثبتة بالجدران فوق حشيات مليئة بالقش ويتوافر لديهم اللحم والخضراوات الغضة (الطازجة) تصلهم كل يوم ، ولكن الحياة مع هذا قاسية صعبة ، فمن الفجر إلى الظلام تمتلئ الغابة بصوت ضربات « البلط » ، وأصوات سقوط الأشجار ، وصوت المناشير وأصوات ارتطام السلاسل المعدنية .

إن الحطابين يتقدمون إلى داخل الغابة ، إنهم يمهدون مناطق دائرية الشكل



« تجر الخيول أهرامات من كتل الأخشاب فوق زلاقات على الطرق المغطاة بالثلج »

واسعة وسط غابات الصنوبر . على أن هذا لا يقصر على ويسكونسين وحدها ، بل تسير عملية قطع الأشجار بسرعة فى كل شمال مينيسوتا

فإذا ما جاء الربيع ولان الطريق الصلب توقف قطع الأشجار . وتحول أقوى وأشجع وأصلب الحطابين عوداً ليكونوا ملاحين فى النهر ، إنهم ينتظرون حتى يذوب الثلج من النهر . وتعلو المياه فوق القشرة الثلجية . وعندئذ يدقون بالمطارق الخشبية هذه العوائق التى تحتجز جذوع الأشجار الضخمة فتندفع لتسقط فى مياه النهر محدثة أصواتاً عالية عند ارتطامها بالماء ، ويكون المنظر متماثلا فى كل نهر .

وفى مناطق الغابات الفسيحة التى يجرى فى وسطها المسيسيبى وفروعه تكون كل مجارى المياه مغطاة بالكتل الخشبية المندفعة وتذهب مع التيار ، ويذهب معها الحطابون كملاحين يتولون توجيهها وهى تندفع فى النهر ، ويحمل كل من الرجال فى يديه شوكة كبيرة من الحديد ذات شعبتين يوجه بها ويدير ويدفع الكتل الخشبية .

ويتولى القيادة فى المقدمة ملاح حطاب ، ويثب الرجال من كتلة خشبية إلى كتلة خشبية أخرى يدورون مع منحنيات النهر وينزلقون مع مساقط المياه .



« فى أثر بيع تدفع الكتل الخشبية مع النهر الصاخب الثائر »

ويجىء وراء الملاح الأول ملاح آخر لالتقاط الكتل التى تجنح إلى البر فيعيدها سيرتها الأولى مع التيار ، ويجىء فى المؤخرة رمث أو طوف[1] الطاهى ومعه هشيم الحنطة ، يتناول الملاحون طعامهم منه كلما وصل الرمث فى جوار أحدهم ، ولكن كثيراً ما لا يتوافر الوقت لتناول أى طعام ؛ فاللحظات دائماً حرجة ، وكل فرد يشعر بقلق ، وكل فرد يلتقط بعض هشيم الحنطة من الحقيبة التى تتدلى من كتفه وأحياناً قد لا يجد حتى اللحظة التى يلتقط فيها الملاح بعض حبات من الحنطة .

ودفع الكتل الخشبية فى مجرى النهر عملية مزعجة مجهدة ، فهى تتطلب كل ما يتوافر للإنسان من قوة وحكمة وطاقة ، وفى الأيام الأخيرة لا ينام الملاح ولا ينال أى قسط من الراحة ، بل أحياناً ينزلق فى الماء المثلج فيبتل ويبقى لأيام دون أن تجف ثيابه ، والتواء عقب الرجل من الحوادث التى تحدث كل يوم ، وارتطام الشوكة الحديدية بقدم الملاح مسألة عادية ، والموت ينتظر عند

(١) الرمث أو الطوف أخشاب مشدودة يعبر بها الماء طفواً .

كل منطقة سريعة التيار عندما ترتطم الكتل الخشبية بعضها ببعض، وأحياناً برغم كل جهد الرجال تتزاحم الكتل وتتعثر ، وتتوقف هذه الطنفسة الكبيرة من الخشب ، تتوقف عن الحركة لأيام بل أحياناً لأسابيع ، ويعمل الرجال بجهد مضن للبحث عن الكتل التى تعطل المجرى لتشبثها بالأرض،وأحياناً قد تسبب دفعة واحدة فى تحريك المجموعة الهائلة كلها ولكن قد يدفع الملاح حياته ثمنا لهذا عندما يكون الاندفاع الفجائى لهذا الركام الهائل من الكتل الخشبية أقوى من أن يحتمله جسمه الواهن الواهى المجهد .

ولكن إلى أين هذا الاندفاع ؟

إن بعض الكتل توجه إلى المصنع القريب لنشر الخشب ، ولكن الغالبية توجه إلى حظائر على النهر تجمع معا فى أرمات ؛ ذلك لأنه فى نهر المسيسبى بمجراه الواسع حيث تكثر الحركة لايمكن أن تسير الكتل الخشبية فرادى ، وعند مصب نهر شيبيوا يوجد ميناء للخشب يقال له : « بيف سلاو » ، وهناك أعدت « صادات » (عوائق) عبر النهر تمنع كتل الخشب من أن تنفذ مع المياه فى سيرها ، ولكن أى مشهد ساحر هذا عندما تمتلئ الأحواض بكتل الخشب ، فلا شيء يمكن أن يراه الإنسان غير كتل من الخشب وإلى أبعد من مدى البصر لا شيء غير كتل الخشب ، إنها تتراكم لتغطى مسافة عشرين ميلا حتى ليخيل إليك أن الغابة كلها قد جاءت إلى النهر .

ومن « بيف سلاو » تذهب الأرمات حتى سان لويس،وبعضها بطول يقرب من ربع ميل، وأكبرها يمتطيها خمسة وثلاثون ملاحاً كلهم من الرجال الصلبى العود الذين تجرى روح المخاطرة مع دمائهم ؛ ذلك لأن الرحلة إلى سانت لويس ليست سهلة هينة، فعواصف الشتاء تكتسح الأرمات، والمياه القليلة الغور تعطلها، والمساقط السريعة التيار تنتظرها لتحطمها .

ولكن الأرمات تسير ، وسنة بعد أخرى تندفع الأرمات مع تيار الماء حتى ليبدو وكأنه لا نهاية لغابات الصنوبر الأبيض التى فى الشمال ، ولكن كانت

هذه خاطرة لاحقيقة لها ، وفى سنة ١٨٨٣ جاء آخر رمث من برية ويسكونسين مع الماء فى المسيسيبى ، كان جيش « البلط » قد قارب إنهاء عمله مع عمالقة ويسكونسين ، إنه يعمل الآن فى منيسوتا حيث لا تزال توجد بعض أشجار من الصنوبر الأبيض ، وفى سنة ١٩١٢ سار إلى مينيسوتا أربعون ألف حطاب للإقامة فى المعسكرات هناك لقطع الخشب .

ولكن قصة نقل الخشب عبر المسيسيبى اقتربت من نهايتها ، فإن الصنوبر الأبيض يختفى بسرعة ، وبعد سنوات قليلة لايكون فى المعسكرات أحد ، وقد أغلقت مناشر الخشب أبوابها ، ونمت الحشائش فى طرقات المدن التى كانت قائمة من حولها ، ولم يعد أحد يسمع صوت ضربات البلط بجذوع الأشجار ولا أصوات سقوط الأشجار العملاقة إلى الأرض ، ولا أصوات المناشير تقطع جذوع الأشجار الضخمة ، ولا أصوات ارتطام السلاسل المعدنية . . .

لقد عاد الصمت والسكون إلى الغابة كما كان من قبل .



« وبقيت الجذور وحدها لتدل على غابات الصنوبر الأبيض »



١٧

الفيضان

فى سنة ١٩٢٧ كان وادى المسيسبى مسرحا لنكبة امتدت من كايرو فى ولاية إلينوى إلى خليج المكسيك ، ولم يحدث مثل هذا الدمار فى أمريكا طوال تاريخها فى السلم ؛ فقد ارتفع فيضان نهر المسيسبى وغطت مياه النهر ثلاثة عشر مليون فدان من الأرض، وفقد أربعمائة أرواحهم، وأمسى سبعمائة ألف بلا مأوى ، وبلغت قيمة ماأتلفه الفيضان ثلثمائة وخمسين مليون دولار .

فلماذا حدث هذا ؟ ولماذا تحول النهر الشيخ إلى الوحشية ؟

فليست الفيضانات فى وادى المسيسبى بالشىء الجديد ، ومنذ عصور معرقة فى القدم كان المسيسبى يطغى على شاطئيه ، ونحن نعرف هذه الحقيقة ، ذلك لأنه عند الحواف التى يقف عندها الفيضان فى كل مرة تتراكم طبقات من الغرين ، وتراكمت الطبقات طبقة إثر طبقة حتى تكون على جانبى النهر جسران منخفضان ، وجاءت أوقات كان النهر فيها يمتلىء أكثر من طاقته ومن ثم فإنه يريق ماءه على هذه الجسور الطبيعية التى بناها هو نفسه ، ولكن

لم يكن من ضرر لهذا يوم ذاك لأن أحداً لم يكن يعيش هناك ، كانت هذه الأرض مستنقعات ملكا خالصاً للنهر ، فلم يكن السكان الأولون من الهنود الحمر يحتاجون إليها .

ثم جاء الرجال البيض وبنوا مدينة نيو أورليانز ثم بدءوا يعملون على النهر ، وبنوا السدود على طول جبهة النهر لإبقاء المسيسيبى خارج مدينتهم ، ولكن عندما بدأ المزارعون يتملكون الأرض على النهر بنوا هم أيضاً الجسور أو زادوا من ارتفاع الجسور الطبيعية التى كونها النهر ، ولكن هذا لم يضايق النهر الشيخ كثيراً ، كان المزارعون قلة ، وكانت هناك ثغرات بين جسر وآخر ، ويستطيع النهر أن يفيض عند هذه الفجوات ، فقد كانت بمثابة مصارف ومشارب مياه طبيعية للنهر .

ومر الوقت ، ووثبت إلى الوجود المدن والقرى على طول الطريق من « كايرو » إلى الخليج ، وسدت المزارع الثغرات بين الجسور ، بل بدأت الجسور تمتد حتى غطت آلاف الأميال على طول النهر من الخليج إلى مصب نهر أوهيو .

ولكن المستنقعات إلى ماوراء الجسور ، والتى كانت ملكا خالصاً للنهر ، قد جففت من الماء وحولت إلى مزارع . وهكذا بدأ المزارعون يزيدون من ارتفاع الجسور ، وتعلموا كيف يجعلونها أقوى وأعلى ، كانوا ينسجون حصيراً من فروع أشجار الصفصاف ويكدسونها فى مواجهة النهر على جانب الجسور لصيانة الأرض ووقايتها من طغيان المياه .

ولكن النهر الشيخ كان يتعرف النقاط الضعيفة ويخترقها . وفى سنة ١٨٨٠ اخترق النهر هذه النقاط الضعيفة ثم فى سنة ١٩٠٣ و ١٩٠٧ و ١٩١٣ و ١٩٢٢ ، اخترق حتى أقوى الجسور وأعلاها .

وفى كل مرة كان الفيضان أسوأ من الذى سبقه ، ولم يعرف الناس سبب هذا ، ولكن الأسباب فى الواقع كانت بسيطة ترى بسهولة .

وأحدها أنه بإغلاق النهر كانت سرعة المياه تزداد و بذلك تكون أكثر تدميراً ،

كان الناس يقولون لأنفسهم : « لقد ملأنا أسنان النمر وقلمنا أظفاره » .

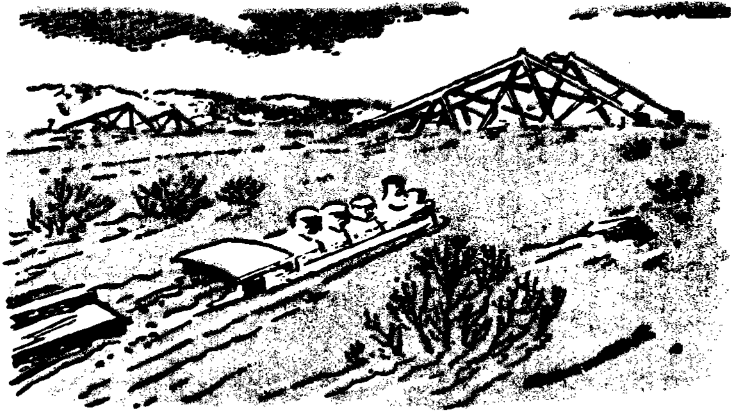
ولكن كان هناك سبب آخر ؛ فالمياه تزداد فى الأنهار عاما بعد آخر ، كان الحطابون قد قطعوا أشجار الغابات وتركوا جوانب التلال عارية ، فهم لم يقنعوا بقطع أشجار الصنوبر لبناء آلاف المدن والبلاد ، بل عادوا فقطعوا أشجار الأرز لأعمدة الأسوار التى ينشئونها حول المزارع ، ثم قطعوا أشجار الطمراق لإعداد دعامات (فلنكات) السكك الحديدية ، وحطموا أشجار التنوب للب الورق ، فتركوا بذلك أرض الغابة عارية ، ثم أشعلوا النيران فالتهمت كل ما بقى من خشب فى أرض الغابة المنهوبة ، وبذلك تركوا الأرض بغير غطاء ساتر ، ولم تعد هناك جذور أشجار تمتص مياه المطر وتحفظ التربة ، ولم تعد هناك أشجار أو حشائش لتمتص قطرات المياه وتجعلها تغوص برفق إلى باطن الأرض ، بل اندفعت مياه الأمطار منهمرة فوق جوانب التلال وصبت فى مجارى المياه .

وفى الجنوب كان الناس قد قطعوا الأشجار وحرثوا الأرض وزرعوا القطن ، كانوا قد شقوا الأخاديد من أعلى إلى أسفل بدلا من أن يدوروا بها حول التلال وعندما انهمرت مياه الأمطار شقت الحفر والأخاديد العميقة وجرت بسرعة .

كان الفيضان حادثا مألوفا ، ولكنه الآن تحول إلى ما هو أسوأ ، وفى سنة ١٩٢٧ بعد موسم أمطار غزيرة حدث أسوأ الفيضانات ، وتساقطت الجسور من « كايرو » إلى « نيتشز » ، وتحول المسيسبى الغربى إلى بحر ، كانت لويزيانا الشمالية بحراً هى الأخرى ، وأنقذت نيو أورليانز بنسف الجسر جنوبى المدينة .

وانصبت فوق المدن والقرى والمزارع مياه صفراء اكتسحت الجسور (الكبارى) المشيدة من الصلب « واقتلعت الخطوط الحديدية ، وخربت المطاحن ومصانع السكر ، وبقيت الدور المشيدة فوق أعمدة وسط المزارع وقد علت المياه إلى قرابة نصف ارتفاعها من سطح الأرض إلى الأسقف .

وتزاحم اللاجئون على الجسور المحطمة وقد صحبوا معهم كل ما استطاعوا إنقاذه من حيوان ومتاع ، وبقيت الأسر المذهولة المأخوذة يحدق أفرادها فى النهر



« حتى الجسور (الكبارى) المصنوعة من الصلب اكتسحها فيضان المسيسبى »

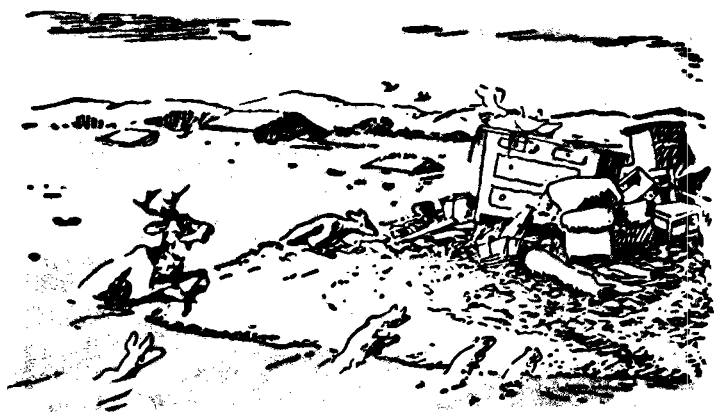
الغاضب ، كانت منازلهم ذات يوم هناك ، ولكن اليوم لم يبق شىء غير المدافن التى تطل عليهم من فوق الأشجار التى تبرز وحدها فوق سطح الماء ، وطفت جثث الحيوانات والأشجار والأسوار والجسور (الكبارى) والدور الخشبية وأقفاص الدجاج ، وزادت المياه التى اندفعت من أربعة وخمسين فرعاً للنهر من هذا الفيضان المحلى .

وزحفت الحيوانات تحاول النجاة من الماء ، وشاركت الحيوانات المفترسة الناس فى الالتجاء إلى الجسور المحطمة ، ونسى الأيل والثعاب والفأر خوفه من الإنسان وكلبه ، وجلست الديكة وطيور السمان فوق ركام الأثاث ، واصطحب الأطفال بالفترة ذات رائحة المسك [1] ، لقد رحب الناس بكل المخلوقات عدا « الحيات » فقد أنكروا عليها حقها فى البحث عن ملجأ يقيها الفيضان .

وانطلقت طائرات الأسطول تملأ الفضاء بأزيزها فوق المنطقة التى غطاها

(١) Muskrats فترة فى أمريكا الشمالية تعيش فى الماء لها فراء رمادية ملساء لامعة وذيل طويل وتشبه رائحتها رائحة المسك .

(مصر وبيسة طبعة سنة ١٩٥٦)



« وخلت الدور من ساكنيها ، وبحث الرجال والحيوان عن الملجأ الآمن »

الفيضان لإنقاذ الناس الذين يتعلقون بأسطح الدور وأعالى الأشجار ، ومخرت البواخر والقوارب عباب المياه فى المناطق التى كانت قبل أيام أرضاً جافة ، والتقطت من لامأوى له ، وأخذت الناس إلى معسكرات الصليب الأحمر ، وأنقذت الحيوانات أيضاً . وقرب نيتشز أنقذت السفن خمسة عشر ألف رأس من الماشية من فوق الجسور والمرتفعات التى كانت قد لجأت إليها ، كانت كلها جائعة حتى إنها أكلت قشور الأشجار للارتفاع الذى استطاعت أن تصل إليها بأفواهها .

واستجابت أمريكا كلها لصيحة الاستغاثة التى انطلقت من الوادى ، وطلب الصليب الأحمر خمسة ملايين من الدولارات ثم طلب عشرة ملايين أخرى وجاءت الأموال بسرعة وتقاطر الغذاء والثياب ، ونقلت السكك الحديدية هذا كله دون أن تتقاضى أجراً .

وبعد شهور عندما عاد المسيسبى إلى مجراه الأصلى وعاد الناس إلى دورهم لإنقاذ ما بقى بها كانوا محزونين ، ولكنهم أكثر حكمة وتبصراً بالأمور ، كانوا



« وعندما نقص الماء وجد المزارعون أرضهم خرباً »

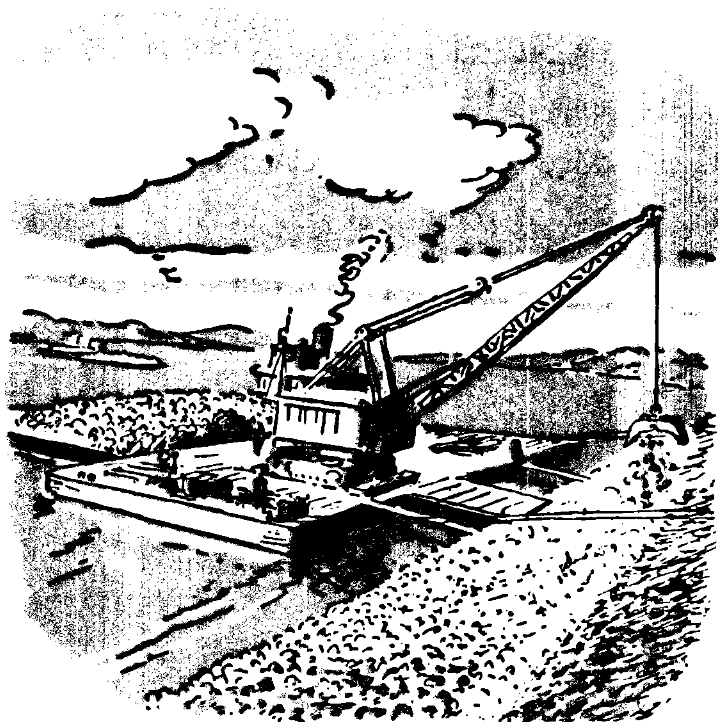
قد أدركوا أخيراً أن الجسور وحدها لا تستطيع احتجاز المسيسبى العاتى ، فإن النهر الذى يحمل كل قطرة مياه تسقط فى ثلثى مساحة القارة لايمكن أن يحتجز وراء جدران ، كان على الناس أن يردوا للمسيسبى ما اغتصبوه منه ، كان عليهم أن يعيدوا له مشارب المياه (المصارف) .

وبدأت اللجان ترسم التخطيط للعمل ، وقيل : إنه يجب أن يعاد بناء الجسور ولكن بطريقة جديدة ، وقالت اللجان : إنه إذا كان من الضرورى أن يخترق الفيضان أى مكان فإن على الناس أن يقرروا أين يجب أن يكون هذا ، وهنا

من الجسور الضعيفة ، فإذا ما ارتفع النهر إلى ذروة الخطر اخترق الجسور الضعيفة واندفعت المياه فى الأراضى المنخفضة فى الأماكن غير الهامة .

ولكن لم يكن هذا كل ما قاله أعضاء اللجان ، لقد قالوا : إن السيطرة على فيضان المسيسبى العاتى معناها السيطرة على فيضان فروعه وروافده أيضاً ، ومعنى هذا ضرورة السيطرة على فروع النهر وروافده أيضاً ، بل السيطرة على مجارى المياه الصغيرة والغدران التى تصب فيها ، ثم هذا النهر الصغير البعيد فى الجبال .

وقالوا : إنه يجب أن تقام الخزانات هناك لاحتجاز المياه وجعلها تمر فى فجوات جافة ، ويمكن فى الوقت نفسه استخدام المياه لتوليد الكهرباء للمزارع



« حورت مجارى المياه فى النهر و بنيت مشارب المياه (المصارف) »

والمدن القريبة ، إنه من الممكن وقف الفيضان ، ولو عمل هذا بالطريقة الصحيحة لأمكن عمل الكثير ، من الممكن أن يؤخذ المسيسيبى ككل ، لقد قسم إلى أجزاء ومن الممكن إعادة هذه الإجزاء بعضها إلى بعض لتكون وحدة واحدة .

ولقد أصر الأخصائيون على شيء واحد هو ضرورة القيام بالخطى التى تحفظ التربة العليا لأرض الوادى ، ذلك لأنه فى كل سنة يأخذ المسيسيبى من هذه القشرة أكثر مما يأخذ أى نهر آخر فى العالم فى موسم فيضانه .

وقال خبراء التربة : « إن المياه تجيء فى الربيع والخريف منحدرة فوق جوانب ألف تل ، وهى فى انحدارها تكتسح الطبقة العلوية لأرض الوادى ، لقد قطع الناس الأشجار دون أن يفكروا فى المستقبل ، وحرثوا الأرض وزرعوا القطن وتحركوا غرباً عندما وهنت الأرض وضعف إنتاجها ، والآن فى كل سنة يكتسح النهر أربعمائة ألف طن من التربة ، وبذلك يذهب أثمن مورد طبيعى إلى خليج المكسيك فيخرَّب جزء من عشرين من أرض الوادى وتفقده الزراعة إلى الأبد ، لقد ذهب ربع تربة القشرة الأرضية العلوية إلى الخليج ، ولهذا من الضرورى أن تزرع الأشجار على جوانب التلال وفى الحقول التى وهنت وضعفت ، من الضرورى أن يعلم المزارعون الطريقة الصحيحة لحرث الأرض » .

كانت أمريكا قد تعرضت لتجربة مخيفة ، وكانت راغبة فى أن تنصت للنصيحة ، وأن تعمل .

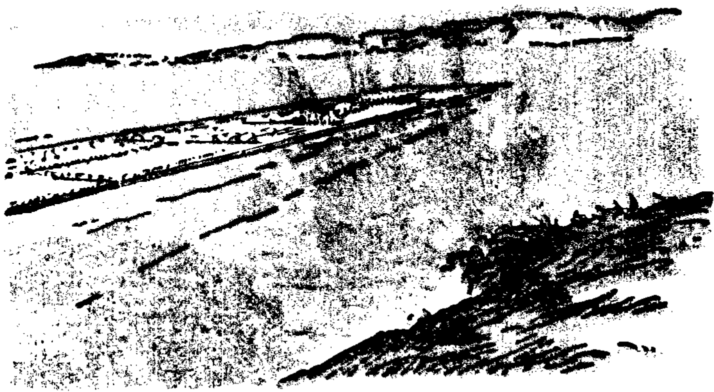


١٨

ملك ، بغير أبهة الملك

عرفنا أنه من الأيسر أن نقوض لا أن نبنى ، ومن الأسرع أن نقطع الأشجار لا أن نزرعها وننميها ، وكان من الضرورى أن يمر وقت طويل لإصلاح ما أفسده الناس فى الوادى ، ولكن النهر الشيخ قد أمكن ترويضه ، فقد تولت الحكومة الفيدرالية الأمر فى المسيسيبى ، وكبر الأمل أنه لن يثور ولن يغضب ثانية .

ومن الصعب أن يتعرف سام كليمنس النهر اليوم ، لقد محور مهندسو الحكومة مجرى النهر ليكون كله بعمق تسع أقدام ، وقد قصروا من طوله أميالا كثيرة ، وبنوا الخزانات والأهوسة ، وتحققوا من وقاية الجسور بأفضل الحشيات ، بعضها من رقائق الأسمنت المسلح بقضبان من الصلب وبعضها من «الكابلات» المعدنية الثقيلة مع شباك من الصلب داخل لفافات من الأسفلت ، ومن الصعب الاعتقاد بأن النهر يستطيع أن يمزق مثل هذه الدعامات القوية .



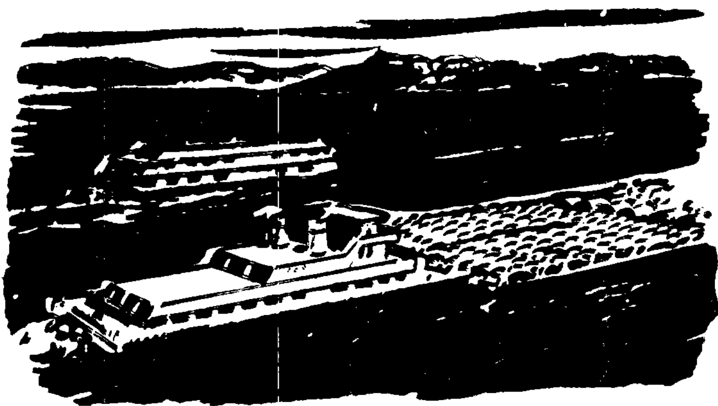
« قاطرة مائية مربعة المقدمة تجر ما يصل إلى أربع وعشرين نقالة مائية »

وليس بالأمر السهل جعل المسيسيبى صالحاً للتجارة ويجرى فى مجراه الطبيعى ، ولهذا فإن المهندسين مشغولون دائماً ، يعدون الأسمنت المسلح والأخشاب والصلب والأسفلت والآلات الرافعة والآلات التى تمحور مجرى النهر ، ولكن النهر ما زال قلقاً ، إنه يكدس الغرين فى مكان و يقتطعه من مكان آخر ، وفى بعض الأحايين فى شهر واحد ينتقل سد مانع لمسافة ميل ، وهكذا تسرع القوارب البخارية مندفعة لقياس العمق ووضع علامات الإرشاد واختبار الأضواء .

ترى ماهى حركة المرور فى هذا النهر المتحضر المروض ؟

إنها حركة نقالات مائية (سفن كبيرة مسطحة القاع) لا قوارب بخارية ، ولنقل البضائع والمتاجر لا نقل المسافرين .

وإنه لمنظر ساحر أن ترقب مجموعة من النقالات الكبيرة وهى تمخر عباب النهر ، قد تكون أربعة وعشرين برغاً من الصلب تجرها قاطرة واحدة مربعة المقدمة ، وكما أن هناك عربات مختلفة الأنواع فى القطارات الحديدية التى تنقل البضائع من العربات المسطحة والمكشوفة والمغطاة المغلقة ؛ ففى النهر كذلك مختلف أنواع النقالات فى المجموعة التى تجرها القاطرة المائية ، كل تصلح للون خاص من البضائع ، نقالات مكشوفة وأخرى مغطاة ، وناقلات للبترول



• وتقطع النقالات فى الظروف المواتية ستة أميال فى الساعة مع التيار •

وأخرى أشبه بالصناديق وكلها تسير متتابعة وراء القاطرة التى تجرها .

ولكن هذه المجموعة من النقالات تسير ببطء ، إن سرعتها فى الظروف المواتية لا تزيد على ستة أميال فى الساعة ، ومن ثم فإنها تحتاج إلى أسابيع فى رحلتها من الشمال إلى الجنوب ، ومن الطبيعى أن البضائع التى يمكن أن تتلف بالزمن لا تنقل بهذه الوسيلة ، والبضائع التى تنقل بالنهر للشمال أو للجنوب من البضائع الثقيلة التى يمكن أن يحتمل مرور الأيام حتى تصل إلى نهاية رحلتها ويجىء البترول فى مقدمة ما ينقل فى النهر ، وكل البترول الذى ينقل إلى منيوبوليس وسانت بول ينقل فى النهر ، والغازولين الذى ينقل إلى بيتسبرج وشيكاغو ينقل للشمال فى النهر ، والكبريت الذى ينقل إلى مصانع الصلب فى بفلو لا يسبقه فى الكم (الكمية) إلا البترول والغاز ، والفحم الذى تحوله شيكاغو إلى ضوء وطاقة ينقل فى النهر ، وكذلك ينقل الصلب والمواد الخام ، والرمل والزلط والخشب والمخصبات والأسمنت والورق والقمح وفول الصويا والرز والسكر والمولاس .

والنقالات بطيئة الحركة ما فى هذا من شك ، ولكنها تحمل ركاماً من

البضائع من مكان إلى آخر ، والنقالة الواحدة قد تنقل ما ينقله قطار كامل من قطارات نقل البضائع ، ومجموعة واحدة من النقالات تحمل أنابيب تكفى لمد خط من الأنابيب لمسافة أربعين ميلا ، ومجموعة أخرى تحمل مليون بشل من الحنطة ، وتحمل من الرمل والزلط ما يحتاج إلى مائة وخمس وستين عربة من عربات السكك الحديدية .

وينقل على النهر كل عام أكثر من مائة مليون طن من البضائع .

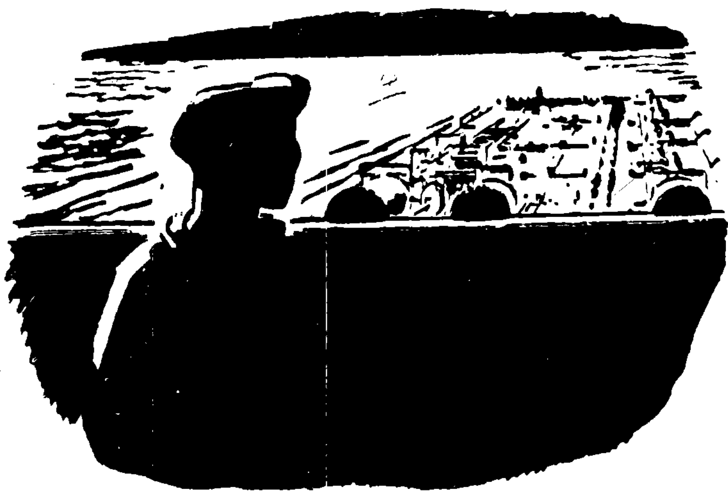
ولكن من هو البطل الذى يقوم بكل هذا العمل ولا يذكر اسمه فى أغنية أو أنشودة ؟

إنه المرشد الذى يتولى قيادة القاطرة المائية ، فبرغم كل الجهد الذى يبذله المهندسون لجعل طريقه سهلا ، لا تزال الرحلة صعبة ، فإن عليه أن يتصور دائماً شكل النهر ، وأن يتذكر كل انحناء وجزيرة وحاجز رملى ، وعليه أن يراقب الريح ، وأن يقرأ عمق الماء ، وأن يصدر القرارات عن وجهته ، كيف ترتب النقالات حتى تدور فى المنحنى ؟ إلى أى مدى يمكن أن يقترب من الشاطئ ، وإلى أى مسافة يمكن أن يمر تجاه الحاجز الرملى ؟ هل يغامر بآلاف الدولارات فيسير فى الضباب ؟ إنه يعيش فى قلق منذ يترك ميناء البلدة التى يبدأ منها حتى يعود إليها بعد أسابيع ، ولكنك لا تحس بهذا القلق عندما تنظر إليه ، إنه يجلس فى مكان القيادة مرتدياً قميصه الأبيض وسرواله القذر ، وليست أمامه عجلة قيادة ، بل إنه يضغط عتلات لإدارة محركات القاطرة ، وهو يفعل هذا وكأنه يفعل أيسر شىء فى العالم ليجر النقالات حول منحنى ، وعندما يمر بمدينة حيث يكون القطار الحديدى واقفاً فإنه يطلق صفارات قاطرته للهو ، فهناك منافسة عنيفة بين النقالات المائية وبين القطارات الحديدية .

إن االمرشد هو ملك قاطرة النقالات المائية ، ولكنه ملك متواضع ، ملك بغير أبهة الملك ، إنه يقوم بعمله كشىء طارئ عرضى تبعاً لما يحدث ،

ولكنه يفكر ويقرر ويجتاز كل عائق ، والمدن تستقبله كذلك ، وعندما يقف تجاه المرفأ لا يندفع الناس نحوه ، ولا يصيحون اليوم كما كانوا يصيحون من قبل : « السفينة البخارية قد أقبلت . . » ، ولقد ضاعت الدهشة كما ضاعت دهشة البلاد كلها عندما جرى السباق بين السفينتين « نيتشز » و« روبرت لى »

ولكن الرحلة على النهر ليست مملة ، فهناك شعور بالجهد الذى يبذل بأقل تضحية ، هناك شعور بالقوة والسيطرة على النهر ، لقد بات المسيسيبى نغماً يتوافق مع لحن القرن العشرين ، ووسيلة تتفق والعصر الصناعى .



« يحرك المرشد القاطرة المائية الحديثة بالضغط على عتلات »